

الدكتور

محمَّد بنُوفيق محمد سعيد

الأسَّاذ في جامعة الأزهر الشريف
وجامعة أم القرى بمكة المكرمة
(سابقاً)

أسرار البلاغ والفرانيز

في

سورة نبت يدا أبي لهب



مكتبة نوهبة

٤١ شارع الجمهورية، القاهرة

ت ٢٣٩١٧٤٧٠ فاكس ٢٣٩٠٣٧٤٦

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُقَدِّمَةٌ

الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين : يَوْمَ يَقُومُ
الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا . يَوْمَ
لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ
يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ .

الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه كما يحبُّ ربُّنا ويرضى في كلِّ
لمحةٍ ونفسٍ عدد خلقه ورضاء نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته كلما ذكره
الذاكرونَ وغفلَ عن ذكره الغافلون ، ملءَ السَّمَوَاتِ وملءَ الأرضِ وملءَ
ما بينهما حمداً يوافي نعمه ويكافي مزيده .

الْحَمْدُ لِلَّهِ الْمَحْمُودِ بِأَلَانِهِ وَنِعْمَائِهِ ، الْمَحْمُودِ عَلَى مَنَحِهِ وَمَنَعِهِ ،
الْمَحْمُودِ عَلَى بَسْطِهِ وَقَبْضِهِ ، الْمَحْمُودِ عَلَى جَمِيعِ أَمْرِهِ ، الْمَعْبُودِ فِي أَرْضِهِ
وَسَمَائِهِ وَجَمِيعِ كُونِهِ .

الحمد لله أَفْضَلَ الْحَمْدِ وَأَعْلَاهُ وَأَشْرَفَهُ وَأَسْنَاهُ ، وَغَايَةَ الْحَمْدِ وَمُنْتَهَاهُ .
الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى نِعَمِهِ الْوَافِرَةِ الْمُتَرَادِفَةِ عَلَى مَدَى الْإِيَامِ ، الْمُتَوَاتِرَةِ عَلَى
جَمِيعِ الْأَنَامِ ، الَّتِي يَعْجزُ الْعَالَمُونَ عَنْ إِحْصَائِهَا فَكَيْفَ بِشُكْرِهَا ؟! ، هُوَ
الْمُتَفَضِّلُ عَلَى جَمِيعِ خَلْقِهِ ، مَا خَلَقَهُمْ إِلَّا لِيَعْبُدُوهُ ، فَيُجْري عَلَيْهِمْ
مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ، وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبِ أَحَدٍ مِنْهُمْ ، تَفَضُّلاً
مِنْهُ وَرَحْمَةً ، لَا بِسَبَبٍ مِنْ عِبَادَتِهِمْ لَهُ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى جَدُّهُ يَا مُرْنَا بِمَا هُوَ

خيرٌ لنا ، وينهاننا عما هو يَضُرُّنا في مسيرنا في دنيانا وَيَضُرُّنا في مَصِيرنا في آخرانا ، فإننا عبيده وهو ربُّنا المتفضل علينا . له الحمدُ حتَّى يَرْضَى ، وله الحمدُ كلُّ الحمدِ إذا ما رَضِيَ بنا عبيداً وأعاننا فكُنَّا له عابدين ، ورضيَ عنا فقبلنا وأقبلَ علينا إقبالَ الحبيب على حبيبه .

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣)

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴾ (الفتح: ٢٨)

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا هَلْ أَذِلُّكُمْ عَلَى تَجَرَّةٍ تُنَجِّيْكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴾ ﴿ تَوَمِّنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ ﴿ يَغْفِرْ لَكُمْ دُؤْبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسْكِنٌ طَيِّبَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ ﴿ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَنْتَ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الصف: ٩-١٤)

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ، اللَّهُمَّ بَارِكْ عَلَى مُحَمَّدٍ ، وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ ، وَعَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ أَجْمَعِينَ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، وَبَارَكْ عَلَى مُحَمَّدٍ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ ، كَمَا بَارَكْتَ عَلَى آلِ إِبْرَاهِيمَ ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على عبدك ونبيّك ورسولك سيّدنا محمّدٍ وعلى
آله وصحبه وأزواجه وذريّته وورثته من أهل العلم وأُمّته أجمعين عددَ
خلقك ورضاء نفسك وزنة عرشك ومداد كلماتك صلاة تنير بها قلوبنا في
مسيرنا وتنير بها قبورنا في مصيرنا ، وتصحّح بها نيّتنا وتطهّر بها نفوسنا من
كلّ ما لا يرضيك ، ومن كلّ ما يشغلنا عن القيام بحقّك علينا ، صلاة تضبط
يا مولانا بسببها كلّ حركتنا ظاهرة وباطنة ضبطاً يرضيك عنّا ، فتقبلنا ،
وتقبل علينا برضوانك وإحسانك الذي لا يتناهى إقبال الحبيب على حبيبه .

إلهنا وإله كلّ شيء أنت ربّ العالمين وأنا عبدك وابن عبدك وابن أمتك
ناصيتي بيدك ، ماض فيّ حكمك ، عدلٌ فيّ قضاؤك ، وأنا بفضلك وتوفيقك
وحولك وقوتك على عهدك ووعدك ما استطعت ، أعوذ بك من شرّ
ما صنعت ، وأبوء بذنبي ، فاغفر لي ، فإنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت .

وارفع بالقرآن العظيم ذكري بين عبادك الصّالحين في الدّنيا والآخرة ،
واسترنني وأهل بيتي وذريّتي وكلّ من رأت عيني من عبادك المسلمين سترًا
لا ينكشف لأحدٍ أبدًا في الدّنيا والآخرة ، وهب لي حكمًا وألحقني
بالصّالحين ، واجعل كلمتي نورًا تهدي به من تحب إلى ما تحب ، وسيفًا
يجتزّ رقاب من تسخط من أحفاد أبي لهب .

واجعل لي لسان صدقٍ في الآخرين واجعلني ووالدي وأهل بيتي
وأشياخي وأصحابي من ورثة جنّة النّعيم الفردوس العظيم مع سيد المرسلين
والعالمين أجمعين عبدك ونبيّك ورسولك سيّدنا محمّد صلّى الله عليه وعلى
آله وصحبه وسلّم

* * *

أَمَّا بَعْدُ حَمْدُ اللَّهِ تَعَالَى وَالثَّنَاءُ عَلَيْهِ وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِعِبَادِهِ الْمُسْلِمِينَ عَامَّةً ، وَبَطْلَابِ الْعِلْمِ مِنْهُمْ خَاصَّةً أَنْ يَسِّرَ لَهُمْ طَرِيقُ الْأَخْذِ مِمَّا اكْتَنَزَهُ فِي كِتَابِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى عَبْدِهِ وَنَبِيِّهِ وَرَسُولِهِ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وَأُنْبَأَهُمْ بِذَلِكَ فِي سُورَةِ (القمر) قَائِلًا سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدْكِرٍ ﴾ (القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠) مكرراً هذا في السُّورَةِ نَفْسِهَا

* * *

وَالذِّكْرُ الَّذِي يَسِّرُ اللَّهُ عَزَّ وَعَلَا الْقُرْآنَ لَهُ إِنَّمَا رَأْسُهُ تَيْسِيرُ تِلَاوَتِهِ وَتَدْبِيرِهِ وَتَيْسِيرُ الْعَمَلِ بِهِ . وَقَدْ قِيَضَ اللَّهُ تَعَالَى لِتَعْلِيمِ تِلَاوَتِهِ وَتَرْتِيلِهِ ثَلَاثَةٌ مِنْ أَهْلِ الْقُرْآنِ احْتَشَدُوا مُحْتَغِلِينَ وَمُتَعَاوِنِينَ فِي هَذَا ، وَقِيَضَ ثَلَاثَةٌ أُخْرَى لِتَعْلِيمِ تَدْبِيرِهِ وَاسْتِنْبَاطِ مَا هُوَ مَكْنُوزٌ فِيهِ مِنْ مَعَانِي الْهَدْيِ دَقِيقِهَا وَجَلِيلِهَا كُلٌّ عَلَى قَدَرٍ مَا يُطِيقُ وَمَا يَمْلِكُ مِنْ أَدَوَاتِ التَّلَقُّي . وَكُلٌّ بِمِقْدَارِ مَا يَتَسَعُّ وَعَاوُهُ - وَوَعَاءُ طَالِبِ الْعِلْمِ قَلْبُهُ - وَكُلٌّ عَلَى قَدَرِ طَهَارَةِ ذَلِكَ الْوَعَاءِ ، فَإِنَّ الْكَرِيمَ فِي دُنْيَا النَّاسِ لَا يَمْنَحُ عَطَايَاهُ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ وَعَاوُهُ نَظِيفًا طَاهِرًا .

وَمَنْ لَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ طَاهِرًا مِنْ أَدْنَى الشَّرِكِ تَعَطَّلَ عَنْ أَنْ يَسْمَعَ . وَتَعَطَّلَ الْقَلْبُ عَنْ أَنْ يَسْمَعَ هُوَ تَعَطُّلُهُ عَنِ الْقِيَامِ بِوُضُوفِهِ الَّتِي خَلَقَ لَهَا ، وَمَنْ أَشَدَّ مَا يَلْحَقُ هَذَا بِالْقَلْبِ الْغَفْلَةُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُرَاقَبَتِهِ ، وَالْإِنْهَمَاكُ فِي الْمَعْصِيَةِ ، فَإِذَا مَا وَقِيَ ذَلِكَ كَانَ أَهْلًا لِأَنْ تَتَوَافَدَ عَلَيْهِ ضُرُوبُ الْفَهْمِ ، وَتَتَرَادَفَ فَنُونُهُ . ﴿ إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ (الأنفال: ٧٠)

فَالْقَلْبُ الْمَعْفَى مِنْ دَاءِ الْغَفْلَةِ وَالشَّهْوَةِ وَالشَّبْهَةِ وَالتَّلَذُّذِ بِالْمَعْصِيَةِ هُوَ الْمَهْبِيُّ لِلتَّلَقِّي ، وَقَدْ أُنْبَأْنَا أَهْلُ الْمَعْرِفَةِ بِالطَّرِيقِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُ « لَوْ

أُعْطِيَ الْعَبْدُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنَ الْقُرْآنِ أَلْفَ فَهْمٍ لَمْ يَبْلُغْ نَهَايَةَ مَا أَوْدَعَ اللَّهُ فِي آيَةٍ مِنْ كِتَابِهِ ؛ لِأَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ ، وَكَلَامُهُ صِفَتُهُ ، وَكَمَا أَنَّ لِسَانَ اللَّهِ نَهَايَةَ ، فَكَذَلِكَ لَا نَهَايَةَ لِفَهْمِ كَلَامِهِ ، وَإِنَّمَا يَفْهَمُ كُلُّ بِمَقْدَارِ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»^(١).

وَكَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَلَا يَبْلُغُ إِلَى نَهَايَةِ فَهْمِهِ فَهُوَ مُحَدَّثَةٌ مَخْلُوقَةٌ .
وَاللَّهُ تَعَالَى مِنْ بَعْدِ أَنْ يُقَسِّمَ عَلَى هَذِهِ النِّعْمَةِ الَّتِي يُبَصِّرُهَا كُلَّ ذِي عَيْنٍ وَيَسْمَعُهَا كُلَّ ذِي أُذُنٍ آمِنٍ بِالْقُرْآنِ أَوْ لَمْ يُؤْمِنْ ، يَحْثُنَا عَلَى التَّذَكُّرِ ، قَائِلًا :
﴿ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴾ (القمر: ١٧)

وَكُلُّ الَّذِي بَسَطَتْ لَكَ الْقَوْلَ فِيهِ بَيَانٌ عَمَّا يُؤْهِلُكَ لِأَنَّ تَسْلُكَ السَّبِيلِ الْقَوِيمِ إِلَى الْفَهْمِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَبَيَانٌ لِمَا يُعِيقُكَ ، فَلَا تَدْخُلُ عَلَى رَبِّكَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وَنَزُولًا عَلَى مَا دَعَا إِلَيْهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رَغِبْتُ فِي أَنْ يَكُونَ لِي مِنْ هَذَا نَصِيبٌ أَتَقَرَّبُ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ، لَعَلَّهُ يَرْضَى . فَآثَرْتُ أَنْ أَعْمَلَ عَلَى تَثْوِيرِ بَعْضِ مَعَانِي الْهُدَى فِي سُورَةٍ مِنْ أَوَائِلِ السُّورِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي صَدْرِ الدَّعْوَةِ: سُورَةُ « الْمَسَدِ »

* * *

وَجْهٌ اصْطِفَاءِ النَّظَرِ فِي تَأْوِيلِ مَنْهَجِ الْإِبَانَةِ فِي سُورَةِ (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) حَرَصْتُ عَلَى أَنْ أَتَّخِذَهَا أَنْمُوزَجًا لِبَيَانِ مَدَى أَثَرِ مَقْصِدِ السُّورَةِ التَّرْبَوِيِّ التَّثْقِيفِيِّ لِلنَّفْسِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَمَوْضُوعِهَا فِي اصْطِفَاءِ مَنْهَجِ الْإِبَانَةِ ، وَالْأَسَالِيبِ الَّتِي تُحَقِّقُ ذَلِكَ ، لِمَا رَأَيْتُ مِنَ الْأَهْمِيَّةِ الْاجْتِمَاعِيَّةِ لِلْمَعْرِفَةِ الْعِلْمِيَّةِ بِمَا هُوَ

(١) التَّفْسِيرُ الْبَسِيطُ ، لِلوَاحِدِيِّ (ت: ٤٦٨هـ) تَحْقِيقُ مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْبَاحِثِينَ ، فِي جَامِعَةِ الْإِمَامِ ، عِمَادَةِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ ، بِالرِّيَاضِ ، ط : ١ ، ١٤٣٠هـ ، ١/٤٢٨

مَكُونُ فِيهَا مِنْ مَعَانِي الْهَدْيِ الَّتِي يَفْتَقِرُ إِلَيْهَا جَمَهَرَةُ الْمُسْلِمِينَ فِي عَصَرِنَا هَذَا ، فَإِنَّ لِلنَّظَرِ فِيهَا الْآنَ أَهْمِيَّةً اجْتِمَاعِيَّةً تَصْطَحِبُ الْأَهْمِيَّةَ الْعِلْمِيَّةَ لِلنَّظَرِ فِيهَا وَفَقَ هَذَا الْمَنْهَجَ .

هذه الأهمية الاجتماعية تتمثل في أمور :

الأول : أَنَّهَا سُورَةٌ تُبَيِّنُ عَنْ مَصِيرٍ مَنْ كَانَ جَامِعًا بَيْنَ الْكُفْرَانِ بِاللَّهِ تَعَالَى وَصَدِّ النَّاسِ عَنْهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَالسَّعْيِ الْحَثِيثِ إِلَى إِقَامَةِ الْعَوَائِقِ وَالْكُدَى فِي طَرِيقِ الدَّعْوَةِ ، ثُمَّ إِلَى ذَلِكَ كُلِّهِ التَّجَرُّدُ مِنْ كُلِّ مَعْنَى آدَمِيٍّ ، وَذَلِكَ مَا يُنَادِي عَلَيْهِ حَالُ أَبِي لَهَبٍ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي الْأَسْوَاقِ ، فَقَدْ كَانَ يُلَازِمُهُ ، وَيَتَفَرَّغُ لِتَفْرِيقِ النَّاسِ عَنْهُ ، وَهُوَ فَوْقَ هَذَا فَارَقَ بَنِي هَاشِمٍ جَمِيعًا وَانْحَازَ إِلَى قُرَيْشٍ فِي حَصَارِهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فِي شُعْبِ بَنِي هَاشِمٍ ، وَلَمْ يَبْقَ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ غَيْرُ أَبِي لَهَبٍ وَوَلَدِهِ يَنَاصِرُونَ الْمُقَاتِلَةَ الْاِقْتِصَادِيَّةَ وَالاجْتِمَاعِيَّةَ . ^(١)

مثلُ هذا الذي كان من أبي لهبٍ منذ خمسة عشر قرنًا أنت واجدٌ نظيره وفوقه من ثلثة (شلة) يتكلمون بلساننا ويعيشون على أرضِ الإسلامِ ، ويكيدون لأهله ولوطنه ، ويناصرون أعداءه ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ (النحل: ١٠٧)

﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢)

(١) سيرة ابن هشام ٢/٢٨٢ ، ومعه كتاب الرُّوضِ الْأَنْفِ فِي شَرْحِ السِّيَرَةِ النَّبَوِيَّةِ لِابْنِ هِشَامٍ . تَأْلِيفُ : السَّهْلِيِّ (ت: ٥٨١هـ) تحقيق : عمر السَّلامِي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ ، ٣٨/٤

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

(الصف: ٨)

والثاني : أَنَّهَا سُورَةٌ تُبَيِّنُ عَنِ الْآثَرِ السَّيِّئِ الْمُدْمِرِ لِلْمَرْأَةِ فِي زَوْجِهَا وَأَهْلِ بَيْتِهَا وَفِي أُمَّتِهَا مِمَّا يَسْتَوْجِبُ حُسْنَ الْبَصَرِ بِحَالِ أَمْثَالِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ الْمُدْمِرَةِ مَا حَوْلَهَا، وَهِنَّ الْيَوْمَ فِي بَعْضِ الْأَوْطَانِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْإِسْلَامِيَّةِ غَيْرُ قَلِيلٍ .

والثالثُ : أَنَّكَ تَرَى احتفالَ حفنةٍ من سَحَرَةِ إبليس الذين مَرَدُّوا عَلَى الكَذِبِ وَإِسْاعَةِ الْفِتْنَةِ وَالْفَاحِشَةِ وَثَلَّةٍ مِنَ الْعِلْمَانِيِّينَ وَفِرْقَةٍ مِنَ الْمَاسُونِيِّينَ كَلَّفُوا بِالْمَبَالِغَةِ فِي تَثْوِيرِ الدَّعْوَةِ إِلَى مَا يُسَمَّى بِتَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ ، وَمَا ذَلِكَ إِلَّا لِمَطَامَعٍ فِي نَفُوسِهِمُ الْخَرِبَةِ .

إِنَّ تَحْرِيرَ الْمَرْأَةِ حَقٌّ لَهَا عَلَى غَيْرِهَا ، وَحَقٌّ لَهَا عَلَى نَفْسِهَا . فَرِيضَةٌ عَلَيْهَا أَنْ تَحْوزَهُ وَأَنْ تَعُضَّ عَلَيْهِ بِنَوَاجِذِهَا شَرِيطَةً أَنْ يُفْهَمَ تَحْرِيرُهَا فَهَمًّا مَوْضُوعِيًّا صَوَابًا ، وَشَرِيطَةً أَنْ يُحَرَّرَ مَدْلُولُ مُصْطَلَحِ التَّحَرُّرِ ، وَشَرِيطَةً أَنْ يُعَيَّنَ مَا الَّذِي يَرَادُ أَنْ يَتَحَرَّرَ مِنْهُ ، وَبِأَيِّ سَبِيلٍ يَكُونُ التَّحَرُّرُ .

ذَلِكَ أَمْرٌ مُهِمٌّ كَمَثَلِ أَهْمِيَّةِ تَحْقِيقِ تَحْرِيرِ الْمَرْأَةِ ، لِأَنَّ تَحْرِيرَهَا عَلَى وَفْقِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ هُوَ جُزْءٌ مِنَ الْإِسْتِجَابَةِ لِهَدْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ حِينَ دَعَا أُمَّتَهُ: « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ » .

فَمِنْ حُسْنِ الْإِسْتِیْصَاءِ تَحْرِيرُهَا مِمَّا يُخْرِجُهَا عَنْ عِزِّهَا وَكِرَامَتِهَا ، وَهَذَا لَا يَكُونُ إِلَّا بِالْإِلْتِمَازِ بِمَا جَاءَ بِهِ بَيَانُ الْوَحْيِ قُرْآنًا وَسُنَّةً ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا بَيَانِ مَا يُمْكِنُ أَنْ يُخْرِجَهَا مِنْ هَذَا ، فَيَجْعَلَهَا عَلَى مِنْهَاجِ أُمَّ جَمِيلٍ ، أَدَاةَ تَدْمِيرِ زَوْجِهَا وَأَهْلِهَا . ثُمَّ لِنَفْسِهَا .

وَعُظْمُ مَا حَوْلَنَا يَسْعَى إِلَى إِحَالَةِ الْمَرْأَةِ أُمَّ جَمِيلٍ ، وَإِحَالَةِ كُلِّ زَوْجٍ إِلَى أَبِي لَهَبٍ ، وَهَذَا لَنْ يَكُونَ أَبَدًا - إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى - مَا دَامَ فِي صُدُورِنَا نَفْسٌ

يتردّد ، وإن فعلوا بقوتهم وطغيانهم وقوانينهم الجائرة الفاجرة وفسوقهم ما فعلوا .

المهمُّ أنّا الآن أحوجُّ ما نكونُ إلى أن نُبَيِّنَ عن الأثر السُّوء المدمِّر لجعلِ أم جميل المرأة المثالية في مجتمعنا .

* * *

وهناك باعثٌ متعلّق بالنظرِ البلاغيّ في بيانِ الوحي يتمثّل في إبرازِ القيمةِ الاجتماعيّة للتفكيرِ البلاغيّ ، ولاسيّما في عصرنا هذا الَّذي يَراَدُ أن يُربطَ فيه البحثُ العلميّ بشقيه : الإنسانيّ والتجريبيّ (العملي) بحاجةِ المجتمع ، فيكونُ في خدمتهِ وتحقيقِ تقدّمه ليكون العلمُ نافِعاً صانعاً ومَن صُنِعَ له ، فالإسلام لا يعرفُ مبدأ العلمِ للعلم والأدبِ للأدب ، بل كلّ شيءٍ لُغايةٍ أسمى .

التفكيرُ البلاغيّ ليست غايته الرئيسة التي يرمى إليها الاستمتاعُ الأجردُ بفيوضِ الجمالِ اللّسانيّ والعقليّ ، مع أن هذا الاستمتاعَ في نفسه ذو قيمةٍ تثقيفية ترويضية للنفسِ الإنسانيّة ، لِمَا فُطِرَتْ عليه النفسُ الإنسانيّة مِنْ محبةٍ للجمالِ في جوانبِ الحياة كلّها محسوسها ومعقولها ، إلّا أن تبصرَ سماتِ الجمالِ في تَفَنُّنِ اللّسانِ في الإبانةِ عَنْ مكنونِ الصّدورِ هو ضربٌ من الإحسانِ في تربيةِ النَّفسِ وإعدادها للقيامِ بما خلقتُ له من تعميرِ الحياةِ من جهة ، والإخباتِ لله سبحانه وتعالى من جهةٍ أخرى .

والتفكيرُ البلاغيّ في البيانِ العليّ المعجز : بيانِ الوحيِ قرآناً وسُنّةً ، وفي البيانِ العالِي البديع : بيانِ الإبداعِ الإنسانيّ شعراً ونثراً هو الَّذي يمنحُ النَّفسَ الإنسانيّةَ فيضاً ممّا يثوّرُ عَزيمَتَها على الفعلِ الخالقِ ، وعلى أن تُعلي الحياةَ في سبيلِ الله تعالى على الموتِ في سبيلِ الله ، فالله عزّ وعلا خلقنا لنحيا في سبيله ، لا لأن نموتَ في سبيله كما يحسبُ غيرُ قليلٍ .

هو جَلَّ جلاله ما شرعَ لنا الموت في سبيله إيماناً واحتساباً إلا إذا تعذَّرَ علينا أن نحيا في سبيله إيماناً واحتساباً ، فحُشّا على أن نموتَ في سبيله تعالى ليتحقَّقَ لغيرنا الحياةُ في سبيله تعالى ، فيكون موتنا هذا سبباً في تلك الحياة في سبيلِ الله تعالى العامرة للأرض بطاعة الله جلَّ جلاله .

التَّفكيرُ البلاغيُّ في بيانِ الوحيِ قرآنًا وسُنَّةً يَطْمَحُ فيما يَطْمَحُ إلى أنْ يَعمَلَ على تحقِيقِ شيءٍ بَالِغٍ مِنْ هَذَا التَّشْوِيرِ النَّفْسِيِّ لِلْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَعْمِيرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ .

وَهَذَا يُحَقِّقُ مِنْ زَاوِيَتَيْنِ :

زَاوِيَةُ التَّبَصُّرِ فِي مَنَهْجِ بَيَانِ الْوَحْيِ قرآنًا وسُنَّةً في إِفْهَامِنَا حَقِيقَةَ النَّمَاذِجِ الْمُثَلَّى لِمَنْ قَامُوا بِتَحْقِيقِ الْحَيَاةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، وَإِعَانَةِ الْآخَرِينَ عَلَى ذَلِكَ ، وَمَنَهْجِ تِلْكَ النَّمَاذِجِ وَأَدْوَاتِهِمُ الَّتِي اتَّخَذُوهَا لِإِنْفَاذِ ذَلِكَ .

وَزَاوِيَةُ التَّبَصُّرِ فِي مَنَهْجِ بَيَانِ الْوَحْيِ قرآنًا وسُنَّةً وَفِي إِفْهَامِنَا نَمَاذِجَ مِمَّنْ اتَّخَذُوا الْإِفْسَادَ فِي الْأَرْضِ وَإِدَارَةَ الْإِفْسَادِ فِيهَا وَرِعَايَةَ سَدِّتِهِ رِسَالَةَ حَيَاةٍ وَالتَّبَصُّرِ فِي مَنَهْجِهِ فِي إِفْهَامِنَا مَنَهْجَهُمْ فِي هَذَا وَإِفْهَامِنَا الْأَدْوَاتِ الَّتِي مَارَسُوا بِهَا هَذَا الْإِفْسَادَ حَتَّى نَكُونَ عَلَى بَصِيرَةٍ بِهِمْ ، فَلَا نُخَدَعُ بِمَعْسُولِ أَلْسِنَتِهِمْ ، وَلَا نُبْهَرُ بِمَا يَنْشُرُونَهُ مِنْ حَوْلِنَا مِنْ مَغْرِيَاتٍ تَزَلُّ فِيهَا الْقَدَمُ ، فَلَا تَكُونُ إِلَّا الْحَالِقَةُ الْحَارِقَةُ .

التَّفكيرُ البلاغيُّ في بيانِ الوحيِ مَهْمُومٌ - عِنْدَ أَهْلِ الْبَصِيرَةِ الْنافِذَةِ - بِذَلِكَ ، أَوْ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَلِكَ . وَهَذَا مَأْمٌ جَلِيلٌ ، وَحَمْلٌ ثَقِيلٌ لَا يُوَفِّيهِ بَعْضُ حَقِّهِ إِلَّا رَجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ تَعَالَى عَلَيْهِ .

ونحنُ هنا بصددِ النَّظَرِ في الزَّاويةِ الثَّانيةِ ، فإنَّ التَّخْلِيَةَ تَسْبِقُ التَّحْلِيَةَ ، فنغدو إلى التَّبَصُّرِ في إِبَانَةِ الوحيِ وتصويرِهِ نموذجاً من أكابرِ أهلِ الإفسادِ في الأرضِ ومن أكابرِ الصِّدِّ عن سبيلِ الله تعالى ، كيما ندركَ حالَهُ مَسِيرًا في الأرضِ وحالَهُ مصيرًا يَوْمَ العَرَضِ ، فلا نكونُ قط من أحفادهِ ، ولا نكونُ قط من مُهادِنِهِمْ أو من مُداهِنِهِمْ ، وإنْ علَتْ أصواتُهُمْ ، فأزعَجَتِ القُلُوبَ ، وإنْ علَتْ سياطُهُمْ فأدَمَّتْ الظُّهُورَ .

* * *

عمودُ المنهج : يقومُ منهجُ النَّظَرِ هنا على الجمعِ بينِ خاصيَّةِ منهجِ البحثِ العلمي (الاستقرائيِّ المُقابلِ للمنهجِ الاستدلاليِّ) وخاصيَّةِ منهجِ قراءةِ النَّصِّ (المنهجِ البيانيِّ) ^(١)

(١) يضعُ عبدُ القاهرِ لنا في كتابيه «أسرارِ البلاغة» و«دلائلُ الإعجاز» نصينِ جليلينِ يخلصانِ لنا عمودَ منهجِ البحثِ العلمي ، ومنهجِ قراءةِ البيانِ . يقولُ :

«واعلمْ أنَّ غرضي في هذا الكلامِ الَّذِي ابتدأتهُ ، والأساسِ الَّذِي وضعتُهُ ، أنْ أتوصلَ إلى بيانِ أمرِ المعانيِ كيف تختلفُ وتتَّفَقُ ، ومن أين تجتمعُ وتفتَرِقُ وأفصلَ أجناسها وأنواعها ، وأتبعَ خاصَّها ومُشاعها ، وأبينَ أحوالها في كَرَمِ مَنْصِبها من العقلِ ، وتمكُّنُها في نِصايهِ ، وقُرْبِ رَحِمِها منه ، أو بُعدها حينَ تنسبُ عَنْهُ ، وكونُها كالحليفِ الجاريِّ مجرى النَّسَبِ ، أو الزَّئيمِ المُلصَقِ بالقومِ لا يقبلونه ، ولا يمتعضونَ له ولا يَدُبُّونَ دونه»

(أسرارِ البلاغة ، لعبدِ القاهرِ الجرجاني ، (ت: ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، ط : مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة ، ص ٢٦)

ويقولُ في «الدلائل» :

«وإذْ قد عرِفْتَ أنَّ مدارَ أمرِ «النَّظْمِ» على معاني النَّحوِ ، وعلى الوجوهِ والفُروقِ الَّتِي مِنْ شأنِها أنْ تكونَ فيه ، فاعلمْ أنَّ الفُروقَ والوجوهَ كثيرةٌ ليسَ لها غايةٌ تقفُ عندها ، ونهايةٌ لا تجدُ لها ازدياداً بعدها .

ومن ثَمَّ فَإِنِّي أَعَمَدُ هُنَا إِلَى النَّظَرِ فِي سُورَةِ (المسد) مُسْتَبَصِرًا مَا اتَّخَذَتْهُ
السُّورَةُ مِنْ أَسَالِيبِ الْإِبَانَةِ عَمَّا هُوَ مَكْنُونٌ فِيهَا مِنْ مَعَانِي الْهُدَى ، وَعِلَاقَةِ
ذَلِكَ بِمَقْصُودِهَا الَّذِي تَهْدِي كُلُّ مَعَانِيهَا الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ إِلَيْهِ . وَعِلَاقَتُهَا
بِمَعَانِي الْهُدَى فِي سُوَرٍ أُخْرَى تُجَاوِرُهَا أَوْ تَقَابِلُهَا مَوْقِعًا وَوُضُفَةً فِي نَسْقِ
التَّلَاوَةِ

* * *

عمود منهج الإبانة عما أريد من تثيره من معاني الهدى :

إِنِّي لِأَعْلَمُ عِلْمَ يَقِينٍ أَنَّ لِمَنْهَجِ الْبَحْثِ الْعِلْمِيِّ أَسْلُوبًا يَتَّسِمُ بِالذِّقَّةِ
وَالِاِقْتِصَادِ اللَّغَوِيِّ . وَيَبْتَغِدُ عَنِ الْمَجَازَاتِ وَالْخَطَايَةِ التَّأْثِيرِيَّةِ . وَيَبْتَغِدُ عَنِ
تَوْجِيهِ الْخُطَابِ لِلْقَارِئِ . وَيَبْتَغِدُ عَنِ التَّوَجُّهِ إِلَى اسْتَفْزَازِ الْمَشَاعِرِ . وَيَبْتَغِدُ
عَنِ اسْتِعْمَالِ أَسَالِيبِ التَّوَكِيدِ . وَيَبْتَغِدُ عَنِ الْاسْتِطْرَادِ ، وَعَنِ إِثْقَالِ الْهُوَامِشِ

== ثَمَّ اعْلَمُ أَنَّ لَيْسَتْ الْمَزِيَّةُ بِوَاجِبَةٍ لَهَا فِي أَنْفُسِهَا ، وَمِنْ حَيْثُ هِيَ عَلَى الْإِطْلَاقِ ،
وَلَكِنْ تُعْرَضُ بِسَبَبِ الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ الَّتِي يُوضَعُ لَهَا الْكَلَامُ ، ثَمَّ بِحَسَبِ مَوْقِعِ
بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ ، وَاسْتِعْمَالِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ .»

دَلَالُ الْإِعْجَازِ لِعَبْدِ الْقَاهِرِ قَرَأَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ شَاكِرٌ ، ط ٣ ، سَنَةِ ١٤١٣ هـ ،
دَارُ الْمَدَنِیِّ بِجَدَّةٍ ، ص ٨٧

هَذِهِ الثَّلَاثَةُ الَّتِي عَيْنُهَا عَبْدُ الْقَاهِرِ مُثَابَّةٌ لِتَحَقُّقِ الْمَزِيَّةِ لِأَيِّ خُصُوصِيَّةٍ تَرْكِيبِيَّةٍ :

« الْمَعَانِي وَالْأَغْرَاضِ الَّتِي يُوضَعُ لَهَا الْكَلَامُ »

« مَوْقِعِ بَعْضِهَا مِنْ بَعْضٍ »

« اسْتِعْمَالِ بَعْضِهَا مَعَ بَعْضٍ » .

مِمَّا قَلَّ اعْتِنَاءُ غَيْرِ قَلِيلٍ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ بِبِلَاغَةِ الْعَرَبِيَّةِ عَامَّةً ، وَبِلَاغَةِ بَيَانِ الْوَحْيِ
قُرْآنًا وَسُنَّةً خَاصَّةً بِالْوَفَاءِ بِبَعْضِ حَقِّهِ ، فَهَمَّا وَتَطْبِيقًا وَهُوَ أَمْرٌ جَدِيدٌ بِحَسْنِ تَبْيِينِهِ
تَصَوُّرًا نَظَرِيًّا وَتَطْبِيقَهُ مِمَارَسَةً تَأْوِيلِيَّةً .

بالتعليقات . وبيّتعدُّ عن كلِّ ما يُمكن أن يستغنى عنه ويبقى أصلُ المعنى قائماً .

أعلمُ بِحقِّ ذلك ، ولكنَّ الذي بين يديك ما هو بِبحثٍ علميٍّ ، وما لِذلك قمتُ وفزعتُ .

هذا كتابٌ يقوم إلى أن يشوّر معاني الهدى في سورة « المسد » وأن يوصلها إلى قلب القارئ ، وأن يقيمها فيه ، ويوطنها ، وأن يملأها بها ، فتفعل فيه ما يحمله على أن يفعل بما فيها من الهدى .

كتابٌ يسعى إلى أن يرسم لك صورة أبي لهب وامراته مسيراً ومصيراً ، كما جاءت به سورة « المسد » حتّى تفرّ أنت ومن حولك من أبي لهب وامراته ، فلا تكونوا من أحفادهما ، فإنَّ أحفادهما يتكاثرون تكاثراً الجراد . ومن ثم حملتُ نفسي حملاً على أن أسلك أسلوباً آخر غير ما يلزمني به أدبُ البحث العلمي في الإبانة عن المعاني^(١) .

حملتُ نفسي على أن أسعى إلى تشوير المعاني وتمكينها وتكثيرها وتفعيلها ، وأن استطرّد حين أرى أنَّ الاستطراد سيعين على الوصول بالقارئ إلى ما أراه خيراً له ، فاتخذتُ من الهوامش حقولاً أزرعُ فيها أفكاراً ، وميداناً أبارزُ فيه بكلمة الحق إيماناً واحتساباً باطلاً كثر أنصاره .

ومن ثم أهيبُ بالقارئ أن لا ينصرف عن قراءة الهوامش ، فخيرٌ له إن شاء الله تعالى أن يهتمَّ بالهوامش في هذا الكتاب ، اهتمامه بالمتن ، فإن في هذه الهوامش ما ينفعه .

(١) قلت هذا حتّى لا يقتدي بي هنا طلاب الدراسات العليا في بحوثهم ، فيكتبون كما كتبتُ هنا .

وحرصتُ على أن أجعلَ بياني قريباً من جمهرة القراء ، فإنِّي أخشى أن تمتدَّ إلى هذا الكتابِ يدٌ من ليسَ بطالِبِ علمٍ ، فيعوقهُ شيءٌ من حزونة البيان عن المضيِّ في القراءة ، فأخسرُ صحبته ، فتحاشيتُ كثيراً حُزونة البيان. وظنَّي أن هذا المبتغى يجعلُ القارئَ يغفرُ لنا ما صنعتُ مكرهاً غيرَ بطلٍ. والله تعالى هو المستعانُ وحده على طاعته على الوجه الذي يرضيه ، فيَرْضينا بفيضِ مَحَبته ، ورعايته ، وحفظه ، وتقريبه لنا ، وتفضُّله علينا بستره الَّذي لا ينكشفُ لأحدٍ أبداً من العالمين في الدنيا والآخرة .
إنَّه وَلِيٌّ ذَلِكَ والقادر عليه وهو الْمُتَفَضِّلُ بِهِ على مَنْ يَشَاءُ كَمَا يَشَاءُ ومتى شاء سبحانه وتعالى .

وصلَّى الله وسلَّم وباركَ على عبده ونبيِّه ورَسُولِهِ الأَمِينِ سيِّدنا مُحَمَّدٍ وعلى آلِهِ وصحبِهِ وورثَتِهِ من أهل العلم . والحمدُ لله ربَّ العالمين .

تحريراً في غرة من ذي الحجة ١٤٣٨هـ

الموافق

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

almasry411@gmail.com

الفصلُ الأولُ

أَمَّا قَبْلُ بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ مُرَاجَعَاتٌ مَنَهْجِيَّةٌ

مَمَّا يَحْرُصُ عَلَيْهِ أَهْلُ الْعِلْمِ قَبْلَ تَدَبُّرِ سُورَةٍ مِنَ السُّورِ اسْتِجْمَاعُ شَأْنِ هَذِهِ السُّورَةِ ، وَمَا يَتَعَلَّقُ بِنَزُولِهَا زَمَانًا وَمَكَانًا وَسَبَبًا عَامًّا أَوْ خَاصًّا ، وَمَوْقِعُهَا بَيْنَ السُّورِ فِي سِيَاقِ النَّزُولِ ، وَسِيَاقِ التَّرْتِيلِ ، وَمَقْدَارُ عَدَدِ آيَاتِهَا ، وَكَلِمَاتُهَا ، بَلْ وَحُرُوفُهَا ، وَمَا وَرَدَ مِنْ رَوَايَاتٍ صَحِيحَةٍ فِي تَلَاوتِهَا ، وَمَا وَرَدَ مِنْ صَحِيحِ السُّنَّةِ فِي فَضْلِهَا . وَغَيْرُ ذَلِكَ كَثِيرٌ مِمَّا تَزَخَّرُ بِهِ أَصْفَارُ عُلُومِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ ، وَأَنْتَ لَا تَجِدُ كِتَابًا فِي النَّاسِ قَدْ عُنِيَ بِهِ أَهْلُهُ وَغَيْرُ أَهْلِهِ كَمَثَلِ مَا أَنْتَ تَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ .

وَكَذَلِكَ لَا تَجِدُ كِتَابًا قَدْ تَنَادَى غَيْرُ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَتَكَاتَفُوا وَبَدَلُوا مِنْ جَهْدِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ وَأَعْمَارِهِمْ فِي تَثْوِيرِ الْإِفْكِ وَالشُّبُهَاتِ الْوَاهِنَةِ حَوْلَهُ فِي عُقُولِ الدَّهْمَاءِ مِنْ غَيْرِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ وَمِنْ أَشْبَاهِ الْمُؤْمِنِينَ بِهِ ، وَلَمْ يَسْتَطِيعُوا بَرغمٍ مِنْ ذَلِكَ أَنْ يَصِلُوا إِلَى شَيْءٍ مِمَّا يَطْمَحُونَ الْوَصُولَ إِلَيْهِ كَمَثَلِ مَا أَنْتَ تَجِدُ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الَّذِي تَكْفَلُ بِإِنزَالِهِ عَلَى النَّبِيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ هُوَ الَّذِي تَكْفَلُ بِحِفْظِهِ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)

ومن عوامل حفظه حمل العلماء الأثبات إلى التعبّد بالعبادة بتعلّمه وتعليمه واستفراغ الجهد والعمر في إتقان البحوث العلميّة الرّصينة المتعلّقة به .

وحسن أن أوجز هنا شيئاً من شأن هذه السّورة لعلّ في ذلك ما يُعين على حسن التّلقّي والفهم عن الله سبحانه وتعالى .

* * *

اسمها :

مما عني به أهل العلم بالقرآن النّظر فيما سُميت به السّور ، وما هو مرفوع إلى النّبيّ صلّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ، وما هو موقوف على الصحابة رضي الله عنهم ، وما هو من تسمية التّابعين والأئمة من أهل العلم .

وهم إذ يشتغلون بذلك إنّما يبعثهم على ذلك علمهم أنّ في التّسمية ما يهدي إلى خصوصيّة في هذه السّورة ، وهذا يعنى التفاتهم إلى أنّ اسم السّورة عنصرٌ من عناصر براعة استهلالها .

و«براعة الاستهلال» في علم العربيّة من معالم تماسك البيان وتلاخظ معانيه وانصرافها إلى مأمٍّ ومَحَجٍّ ومركزٍ تدور عليه هذه السّورة ، واسم السّورة ، وعنوانها (عنوانها) هادٍ في لطفٍ إلى معلّمٍ من معالم ذلك المركز . وهم بذلك الفهم كانوا أسبق إلى فقه خصائص البيان العالي البديع ، بل العليّ المعجز ، فهم أهل البلاغة فهمًا وإفهامًا ولم يكونوا قطّ عالّةً على غيرهم فضلاً عن أن يقتاتوا فُتاتِ موائد الأعاجم ورجيع الأمم في العلم بأصول فهم البيان العالي ومناهجه ، كما يفعل المحدثون من النقدة والمثقفين .

سميت هذه السورة سورة «تبت» وسورة «المسد» وسورة «الذهب» وهذه التسمية لها علاقة بمركز المعنى في السورة ، فكلُّ من هذه الأسماء الثلاثة تلفت إلى ما يكون مصيراً لكلِّ من عَرَفَ الحقَّ وعانده استكباراً في الأرض ، فقد كان أبو لهبٍ عالماً بأنَّ ابن أخيه سيدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ على حقٍّ مبين ، وأنه صادقٌ في كلِّ ما ينبئُ به ، ولكنه تحت تأثيرِ امرأته عليه عاند واستكبر ، فكان على طريقِ إبليس الذي ما منعه مِنَ السُّجُودِ طاعةً لله ربِّ العالمين سوى استكباره .

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)

وسورة (المسد) مكية نزلت في السنوات الأولى من البعثة :

روى الشيخان في صحيحيهما : البخاري في كتاب (التفسير) ومسلم في كتاب (الإيمان) بسندهما عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ (الشعراء: ٢١٤) وَرَهْطَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ، خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ حَتَّى صَعِدَ الصَّفَا فَهَتَفَ : « يَا صَبَاحَاهُ » . فَقَالُوا مَنْ هَذَا ؟ ، فَاجْتَمَعُوا إِلَيْهِ . فَقَالَ : « أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلاً تَخْرُجُ مِنْ سَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟ » . قَالُوا : مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ كَذِبًا . قَالَ : « فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ » .

قَالَ أَبُو لَهَبٍ : تَبَّا لَكَ ، مَا جَمَعْتَنَا إِلَّا لِهَذَا ، ثُمَّ قَامَ ، فَنَزَلَتْ : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١)

وَقَدْ تَبَّ ، هَكَذَا قَرَأَهَا الْأَعْمَشُ يَوْمَئِذٍ . (النص للبخاري)

وروى الحميدي في مسنده عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ، قَالَتْ : لَمَّا نَزَلَتْ ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١) أَقْبَلَتِ الْعَوْرَاءُ : أُمُّ

جَمِيل ابْنَةُ حَرْبٍ ، وَلَهَا وَلَوْلَةٌ وَفِي يَدِهَا فَهْرٌ^(١) وَهِيَ تَقُولُ : مَذْمَمًا أَيْنَا ، وَدِينُهُ قَلِينَا ، وَأَمْرُهُ عَصِينَا . وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ ، ثُمَّ قَرَأَ قُرْآنًا وَمَعَهُ أَبُو بَكْرٌ ، فَلَمَّا رَأَاهَا أَبُو بَكْرٍ قَالَ : « يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ أَقْبَلْتَ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ »^(٢) .

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّهَا لَنْ تَرَانِي » .

وَقَرَأَ قُرْآنًا اعْتَصَمَ بِهِ ، كَمَا قَالَ وَقَرَأَ : ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَجَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴾ (الإسراء: ٤٥) فَأَقْبَلَتْ حَتَّى وَقَفَتْ عَلَى أَبِي بَكْرٍ ، وَلَمْ تَرَ رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ - فَقَالَتْ : يَا أَبَا بَكْرٍ إِنِّي أَخْبِرْتُ أَنَّ صَاحِبَكَ هَجَانِي .
فَقَالَ : لَا ، وَرَبُّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ^(٣) .

(١) الفَهْرُ الحجرُ قَدْرُ مَا يُدَقُّ بِهِ الْجَوْزُ ونحوه ، وقيل هو حجر يملأ الكف ، والجمع أَفْهَارٌ وفُهُورٌ .

(٢) قد يفهم غافلٌ عجلٌ من قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : قَدْ أَقْبَلْتَ وَأَنَا أَخَافُ أَنْ تَرَكَ . « أَنْ فِي هَذَا مَا يَفْهَمُ مِنْهُ مَا يَقْدَحُ فِي رَجُولَةٍ أَيْ مِنْهُمَا . هَذَا لَا يَرُدُّ إِلَّا عَلَى قَلْبِ غَافِلٍ عَجَلٍ لَا يَعْقِلُ سُنَنَ الرُّجُولَةِ عِنْدَ الْعَرَبِ يَوْمَ كَانَ الْعَرَبُ عَرَبًا . مِنْ سُنَنِ الرُّجُولَةِ أَلَا يَقَابِلَ الرَّجُلُ إِسَاءَةَ الْمَرْأَةِ لَهُ ، فَالرَّجُلُ لَا يَمُدُّ يَدَهُ ، وَلَا لِسَانَهُ إِلَى امْرَأَةٍ ، وَإِنْ قَالَتْ مَا قَالَتْ ، وَإِنَّمَا الْأَمْرُ يَكُونُ مَعَ مَنْ يَتَوَلَّى أَمْرَهَا ، فَأَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ خَافَ أَنْ تَتَطَاوَلَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ مَتْرَسَةٌ بِسُنَنِ الرُّجُولَةِ الَّتِي تَمْنَعُ مِنَ الرَّدِّ عَلَيْهَا قَوْلًا أَوْ فِعْلًا .

(٣) لقول الصديق رضي الله عنه : « لَا ، وَرَبُّ هَذَا الْبَيْتِ مَا هَجَاكَ » وجهان :
الأوَّلُ : أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَهْجُهَا مِنْ عِنْدِ نَفْسِهِ حَتَّى يُنْسَبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، بَلِ الَّذِي هَجَاهَا هُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ، =

قَالَ: فَوَلَّتْ وَهِيَ تَقُولُ: قَدْ عَلِمْتُ قُرَيْشُ أَنْتِي بِنْتُ سَيِّدِهَا» (١)

من هذا الذي مضى يتبين لك أنَّ هذه السُّورَةَ قد نزلت جملة واحدة في العهد المكيّ، من قبل وفاة أبي لهب التي كانت عقب «غزوة بدر». وهذا دالٌّ على أنَّها إخبارٌ بغيب سيقعُ، وهذا الإنباء وجهٌ قاطعٌ من وجوه الإعجاز التي لا تتأتَّى المنازعة فيها أو التوقف. وهو ممَّا يفحِّمُ كلَّ مَنْ يُعاندُ في إعجاز القرآن.

والقرآنُ هنا لم يقل: ستتب يدا أبي لهب، بل قطع بالأمر وكأنَّه قد حدَّث، بل هو حدَّث فعلاً بمجرد أن أخبر الله سبحانه وتعالى به، فهو خبرٌ حقٌّ، جاء الواقع ليصدِّق هذا الخبر. فجمع بين أنَّه حقٌّ، وأنَّه صدقٌ.

وكان بملك أبي لهب أن يكذب القرآن، فيؤمن، فينادي: ألا إنَّ محمداً يقولُ إنِّي خسِرٌ هالكٌ، ألا اشهدوا أنَّي آمنْتُ بما أنزل، فيفسدُ عليه دعوته، ولكنَّه صرف إلى قدر الله عزَّ وعلاً صرفاً، ممَّا يدلُّ على سلطان الله سبحانه وتعالى وهيمنته، وكان هذا جديراً بأن يجعل كلَّ من كان حول أبي لهب مُقبلاً على ما جاء به النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم.

* * *

= فما تلاه إنما هو ممَّا أنزلَه الله سبحانه وتعالى عليه. وهذه صَفْعَةٌ صِدِيقِيَّةٌ بالغة.

والآخر: أنَّ هذا ليس بهجاء وشتَم، بل هو إخبارٌ بما سيكون لها يوم الدين، وفي هذا من التَّهديد لها ما فيه. وهو ردُّ بالغٍ على ما نعقت به من قبل. وهذا الوجه الآخر هو الذي يصدر عنه من قال من أهل العلم في تأويل السُّورَةِ إنَّها إخبارٌ بغيبٍ مستقبل، وليست بشتَم.

(١) صححه الألباني في صحيح السيرة النبوية ص ١٣٧، ١٣٨.

وجميع آياتها كان الحرف الأخير فيها هو « الباء » خلا الآية الأخيرة فحاتمتها « الدال » وهذا دالٌّ على أنَّ اتفاق الآيات في خاتمة فواصلها ، وهو ما يسميه البلاغيون « سجعا » ليس غايةً في نفسه ، بل الأمرُ مردهُ إلى المعنى ، وما يقتضيه سياقُ البيان ، فكلُّ موضعٍ جاء فيه اتفاقُ الفواصل في الحرفِ الأخير هو من اقتضاء المعنى ، وليس لتحقيق تناعمٍ صوتيٍّ أجرد من الفائدة المعنويَّة ، يقف على تلك الفائدة بعضٌ ، ولا يبصرها بعضٌ ، فلا يجعل طالبُ العلم عجزه عن أن يبصر الفائدة باعثًا له على نفيها . فكَمُ في الحياة من أشياء هي قائمةٌ لا نبصرها ، ولا يمكننا إنكار وجودها البتة ..

* * *

مقصودها

أهل العلم بكتاب الله تعالى على أنَّ لكلِّ سورةٍ من القرآن مقصودًا أعظم هو محورُ معانيها وعقيدتها ، وكل معنى كليٌّ من معاني معاقدها (فصولها) مشدودٌ إلى هذا المعنى المحوريِّ (المقصود الأعظم) على نحو يكون غير خفيٍّ على متبصر ، وكل معنى جزئيٌّ أيضًا هو مشدودٌ إلى ذلك المعنى المحوريِّ المركزيِّ وإن كان أشدَّ خفاءً على غير قليلٍ من الناظرين من طلاب العلم ، حتَّى إن ورد هذا المعنى الجزئيُّ على نحو الاعتراضِ أو الاستطرادِ .

وأهلُ تفسيرِ البيانِ القرآني وتدبره متفاوتون في العناية بإبرازِ هذا المقصود الأعظم في بيانهم ، وإن كنت أذهبُ إلى أنَّ الأئمة منهم مدركون ذلك المقصود الأعظم ، وإن لم يصرحوا بتعيينه في تفاسيرهم ، لأنَّهم مهتمُّون ببيان أصل المعاني التَّكليفية عقيدةً وشرعيةً .

وهي معانٍ لا يتوقف إدراكُ أصلِها على تعيين المقصودِ الأعظم ، لأنَّ العِرفانَ به مُعَيَّنٌ على البَصَرِ بشيءٍ مِنَ المعاني الإحسانيةِ الزائدة على المعاني التكليفيةِ عقيدةً ، وشرِعةً .^(١)

ومما يَحَسُنُ أن يكونَ طالبُ العلمِ بكتابِ اللهِ سُبْحَانَهُ وتَعَالَى على ذكرِ منه أنَّ هنالك فرقاً بين «المقصودِ الأعظم» : (المعنى أو الغرضِ المحوري) وأغراضِ السورة ؛ لأنَّ أغراضَ السَّورةِ إنّما هي أغراضُ الموضوعاتِ التي تتكوّنُ منها السَّورةُ ، ولا سِيَّما الطُّوالِ والمئين ، وهي أغراضُ مَرَحِلَةٍ ، بينما (المقصودُ الأعظمُ) غرضٌ كليٌّ محوريٌّ ليس خاصّاً بموضوعٍ مِنْ موضوعاتِ السَّورةِ ، وإنْ تفاوتَ ظهورُهُ في بعضِ معاقدِ السَّورةِ أو بعضِ آياتِها ، فهو تفاوتٌ ظهورٍ لا تفاوتٌ حضورٍ .

(١) عَظُمَ المعاني الإحسانية في البياني القرآني هي معانٍ تثقيفية تحفز النفس على الإقبال على ما جاءت به المعاني التكليفية عقيدة وشرِعة وأخلاقاً ، والأخذ بها أخذ بالعِطيةِ الربانيّةِ ، فتقوم النفسُ بما كلفت به عقيدةً أو شرِعةً أو أخلاقاً قيامَ محبةٍ وتشرفٍ لا أخذٍ تكليفٍ وقسرٍ ، فتكونُ علاقةُ العبدِ بربِّه - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى - علاقةً محبةً مزاجها الإجلالُ والخشيةُ المؤسَّسة على عظيمِ عرفانٍ بجلالِ الله تعالى وكمالِهِ .

ومثل هذا يدفق في القلب من لذيذ الأنس بالله تعالى ما لو ذاقه ملوك الأرض لا اشتروا مقدار شرو نغير منه بكلِّ ما في أيديهم من الدنيا . ولكن أكثر الناس لا يعقلون ، فإن للعلم بالله تعالى وبكتابه وسنةِ رَسولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسلَمَ لذة لو علمها الملوك لقاتلوا أهلها عليها ، ولكنه من رحمة الله تعالى بورثة الأنبياء أن جعل أكثر ملوك الأرض أزهّد النَّاسِ في العلم بالله تعالى بل أزهّد النَّاسِ في سماع اسمه - سُبْحَانَهُ وتَعَالَى .

هذه أصولٌ حُرِّى بِطالِبِ العلمِ بِكِتابِ اللهِ تعالى أن يكونَ على ذِكْرِ منها ،
وأن تكونَ حاضرةً في قلبه ولا تَغيبُ ولا تَغيمُ في تدبره واستنباطه معاني
الهدى في أيِّ سورةٍ من سورِ الكتابِ الكريمِ .

* * *

مقصود سورة المسد : تقريرُ أمرين رئيسين تحتاجهما الدَّعوةُ في باكرِ
أمرِها ، وفي مسيرِها كُلِّهِ مِنْ بعدُ ، هذان الأمران :
الأولُ : تقريرُ جلالِ الألوهيةِ في قلوبِ العبادِ .

والآخر : تقريرُ ثقةِ أتباعِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
في انتصارِ دعوةِ الحقِّ وإزهاقِ الباطلِ وأهله ثقة تفتح القلوبَ للإسلامِ قبلَ أن
تفتح البلدان .

وهذا التقريرُ أفهمه البيانُ القرآنيُّ من خلالِ أسلوبِ الإنباءِ بإهلاكِ أهلِ
الكفرِ وأعاونِهِم في الدنيا والآخرةِ إهلاكًا لا تَبْقَى معه لهم شوكَةٌ .

هذا الإنباءُ مُمَثَّلٌ في تَبَابِ رأسِ الكفرِ أبي لهبٍ وامراته وفي هلاكِهِ . فلن
تنفعَهُ قُرْبَى نسبٍ ، وإن علا ، فالنبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ
وهو مَنْ هو لا يَمْلِكُ أن يدفعَ عَن الكافرِ مِنْ ذوي نَسَبِهِ ؛ لَأَنَّهُ صَلَّى اللهُ
عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ عبدٌ لا يَمْلِكُ من الأمرِ شيئًا . بل الأمرُ كُلُّهُ لله
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

وهذا الإنباءُ الحقُّ بإهلاكِ رأسِ الكفرِ يلزمُهُ الإنباءُ بنصرِ الحقِّ وأهله ،
مِمَّا يقرِّرُ الطمأنينةَ في قلوبِ القائمينِ له ، والقائمينِ به ، فإذا كُلُّ بليَّةٍ عندهم
هي تؤوِّلُ يقيننا إلى عطيةٍ ما كانوا للحقِّ قائمينِ ، وبه وجودهم .

* * *

تلاحظ المعاني وتناصرها بين سورة «المسد» وسور آخر:

إذا ما كانت سورة «المسد» قد جاءت إنباءً بتيباب أهل الباطل مُمثلاً في رأس الكفر أبي لهب وامرأته وكان هذا يحمل في رحمته إنباءً بنصر الحق ، وعلو أهله فإن سورة «المسد» تؤكد بمفهومها ما جاء مصرحاً به في السورة قبلها «سورة النصر» :

سورة «المسد» جاءت بشرى لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ولأتباعه وهم يومئذ قليل مستضعفون بأن النصر لهم ، وأنهم على الحق الذي سييسطُ سلطانه وأن من كان من حزب أبي لهب وامرأته ليس لهم إلا الخسران ، وإن عظم فيهم المال ومتاع الدنيا بأسرها ، فلن يغني عنهم شيئاً ، فلا ينشغلن أهل الإسلام بجمع متاع الدنيا إلا بما يكون عوناً على نصر الحق وبسط سلطانه وتحقيق استغنائهم عن كل من ليس من الإسلام في شيء .

وسورة (المسد) تنظر بعين الرعاية والتناصر معاني الهدى في سورة النصر وفي سورة (الكافرون) وفي سورة (الكوثر) ، وفي سورة (الماعون) وفي سورة الفيل وسورة قريش :

إذا ما نظرت في كل من سورتي (الفيل) و(قريش) رأيت في الأولى (الفيل) تصويراً لما حل بمن عاند الحق ونعى على أهله واستكبر وصد عن سبيل الله ، ورأيت في الثانية (قريش) تصويراً لما تفضل به الله تعالى على أهل الحرم وسدنته وحماته من رعاية وعناية وحفظ ، فهلاك أصحاب الفيل هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن الحق من غير قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهلاك أبي لهب وامرأته هو الممثل لهلاك أهل الباطل الصادين عن سبيل الله تعالى من قوم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأنت إذا نظرتَ في سورة (الماعون) رأيتَ أبا لهبٍ وامرأته هما النَّمُودَجُ
الجلبيُّ الكاملُ للذي يكذِّبُ بيومَ الدينِ والذي يدعُ اليتيمَ ، والذي لا يحضُرُ
على طعامِ المسكينِ ، فقد كان عظيمَ الشُّحِّ .

وأنت إذا نظرتَ إلى سورة (المسد) رأيتَ أنَّها دالَّةٌ بمنطوقها على هلاكِ
الكافرِ ، ودالَّةٌ بلازمِها على نصرَةِ النبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وسلَمَ وأتباعِهِ فدلَّ لازمُها على قولِهِ تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾
(الكوثر: ١) ، ودلَّ منطوقُها على قولِهِ تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾

(الكوثر: ٣)

وقد كان أبو لهبٍ أبترًا ، هلكَ ، وخسرَ خُسْرَانًا مَبِينًا ، ولم يُغْنِ عَنْهُ كَمَالُهُ
وولده شيئًا .

هكذا تتلاحظُ معاني سورة (المسد) وسورة (الكوثر) مثلما تلاحظتَ
معاني سورة (الماعون) .

وأنت إذا نظرتَ في سورة (الكافرون) ، رأيتَ منطوقها دالًّا على أنَّ
رؤوسَ الكفرِ لن يؤمنوا ، وهذا ما دلت عليه سورة (المسد) فرأسُ الكافرينِ
أبو لهبٍ وامرأته لن يؤمنوا ؛ لأنَّه سيصلي نارا ذاتَ لهبٍ وامرأته حمالةُ
الحطبِ في جيدها حبلٌ من مسدٍ .

وإذا ما كانت سورة (النصر) دالَّةً بمنطوقها على نصرِ الإسلامِ وهيمنتِ
على العبادِ ، ودالَّةً بلازمِها على كسرِ شوكةِ الكُفْرِ وأنَّه لن تكونَ له البتةُ
دولةٌ ، فإنَّ هذا اللازمُ هو ما دلَّ عليه منطوق سورة (المسد) .

ومن وجوه التَّلاحُظِ والتَّرابُطِ أنَّ سورة (النَّصر) وسورة (المسد) بمثابةُ
الاستئنافِ البيانيِّ من آخرِ سورة (الكافرون) ، فهما جوابٌ عن سؤالِ
استحضره قوله تعالى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) فكأنَّ النبيَّ صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ سَأَلَ فَمَا جَزَائِي ؟ فَقِيلَ لَهُ : جَزَاؤُكَ النَّصْرُ ، وَالْفَتْحُ ، فَقَالَ : وَمَا جَزَاءُ أَعْدَائِي قِيلَ لَهُ : الْهَلَاكُ وَالْخُسْرَانُ .

وقدم مُثُوبَتَهُ بِالنَّصْرِ وَالْفَتْحِ عَلَى عَقُوبَةِ عَدُوِّهِ بِالتَّبِّ وَالْخُسْرَانِ نَشْرًا لِلْبَشَرِ ، وَلِيقَعَ النَّبَأُ عَنِ مَثُوبَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ مُؤَكَّدًا حَيْثُ ذَكَرَ مُصْرَحًا بِهِ فِي سُورَةِ (النَّصْرِ) وَمُلَوَّحًا بِهِ فِي سُورَةِ (المسد)^(١).

وَأَمْرٌ آخِرٌ سُورَةُ (النَّصْرِ) تَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَلِيَ دِينِ ﴾ (الكافرون: ٦) وَسُورَةُ (المسد) تَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾ (الكافرون: ٦) هَذَا أَشْبَهَ بَرْدَ الْعَجْزِ عَلَى الصَّدْرِ مِنْ وَجْهِهِ وَبِالْإِجْمَالِ وَالتَّفْصِيلِ مِنْ وَجْهِهِ آخِرٌ .

وَلِكُلِّ مِنَ الْأَسْلُوبَيْنِ وَظَيْفَتُهُ فِي إِيصَالِ الْمَعْنَى إِلَى الْقَلْبِ بِأَحْسَنِ صُورَةٍ مِنَ اللَّفْظِ وَتَمَكِينِهِ فِيهِ وَتَوَطُّيْنِهِ لِيَفْعَلَ فِيهِ مَا يَجْعَلُهُ قَلْبًا قَادِرًا عَلَى أَنْ يَفْعَلَ مَا يَرَادُ لَهُ أَنْ يَفْعَلَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِمَّا يُرْضِي اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى .

تَبَيَّنَ لَكَ أَنَّهُ إِذَا مَا كَانَتْ سُورَةُ (النَّصْرِ) مِنْ أَوَاخِرِ مَا نَزَلَ مِنْ كِتَابِ رَبِّنَا تَعَالَى عَلَى نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، وَأَنْبَأَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أَنَّ فِي نَزُولِهَا نَعِيٌّ لَهُ ، وَكَذَلِكَ فَهَمَّ مِنْهَا سَيِّدُنَا ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا^(٢)

(١) مفاتيح الغيب للرازي ، ط ٣٠ ، ١٤٢٠ هـ ، دار إحياء التراث العربي . بيروت ، ٢١١/٣٢

(٢) روى أحمد في مسنده بسنده من حديث ابن عباس حدثنا محمد بن فضَّيل حدثنا عطاء عن سعيد بن جبَّير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : لما نزلت ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾ (النصر: ١) قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « نُعِيتُ إِلَيَّ نَفْسِي » ، بأنه مقبوض في تلك السنة .

==

== قال أحمد شاكر في تعليقه على مسند أحمد عن هذا الحديث : إسناده صحيح ، مسند أحمد . تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . ١ ، ١٤١٦ هـ ، دار الحديث ، القاهرة ٢/٤٣٥ ، حديث رقم : ١٨٧٣

روى البخاري في كتاب (المغازي) من صحيحه بسنده عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال كان عمر يدخلى مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم لم تدخل هذا الفتى معنا ، ولنا أبناء مثله فقال إنه ممن قد علمتم .

قال فدعاهم ذات يوم ، ودعاني معهم قال وما ربيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني فقال ما تقولون ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ ﴾ (النصر: ٢١) حتى ختم السورة ، فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره ، إذا نصرنا وفتح علينا . وقال بعضهم لا ندري . أو لم يقل بعضهم شيئاً . فقال لي : يا ابن عباس ، أكذاك تقول؟ قلت لا . قال : فما تقول ؟

قلت : هو أجل رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم - أعلمه الله له ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ ﴾ (النصر: ١) فتح مكة ، فذاك علامة أجلك ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ (النصر: ٣) قال عمر ما أعلم منها إلا ما تعلم . (اهـ)

وهذا الذي جاءنا عن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في تلقيه نعي نفسه من سورة (النصر) تأسيس لمنهج تلقي معنى المعنى ، وأنه طريق قويم من طرق الدلالة على الأمور المهمة ، فإن الإنباء بأجل رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أمر جليل ، وجاء الإنباء به بهذا الطريق ، فدل على عظيم مكانة هذا الطريق في الدلالة على المعاني .

وقد فقه علماء أصول الفقه هذا فجعلوه سبيلاً من سبل استنباط معاني التشريع من بيان الوحي قرأناً وسنة . فوجب على طلاب العلم الاعتناء به تصوراً معرفياً والاعتناء به ممارسة في الفهم والإفهام ، ولهذا كان من حكمة عبد القاهر أن عني به عناية بالغة في كتابه «دلائل الإعجاز» وكان من لقائته وحكمته أن جعل حديثه عن أسلوب الكناية في كتاب «دلائل الإعجاز» لا في كتاب «أسرار البلاغة» وهذا يهدي طالب العلم إلى منهجية عبد القاهر في تصنيف الأساليب .

وكانت سُورَةُ (المسد) من أوائل ما نزل في «مكة» وعند وقوع أمرٍ خاصٍّ كان من أبي لهبٍ ، فإن هذا لم يك قطُّ عاملاً من عوامل تباعد ما بين السُّورتين مضموناً ومقصوداً ، ممَّا يبين لك أن المضامين والمقاصد لا تتوقف علاقاتُ التواصل والترابط فيما بينها على أوقاتِ النزول ومساقاته المقامة ، بل الأمرُ مردّه إلى ما وراء ذلك .

وممَّا يحسنُ تبصُّره أنَّه إذا ما كانت سورة (النَّصر) بما تحمله من بشرى الفتح وبسط سلطان الإسلام ، وكسرِ شوكةِ أهلِ الكفران ، ودخولِ الناسِ في دينِ الله أفواجاً ، قد نزلت في خواتيم بعثته صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فإنَّ ما تضمنته من البشري لم يكن ليبقى إلى آخر البعثة ، بل أنبأ الله سبحانه وتعالى به نبيه ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تلويحاً في مفتتح البعثة في سورة (المسد)، فبدأ بالبشري تلويحاً ، وختم بها تصريحاً .

وهذا من فيض ربوبيته تعالى ، وكريم رحيميته بصفيه وخليفه سيِّدنا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

* * *

علاقة سورة (المسد) بسورة (الهمزة) :

سورة (الهمزة) سورة مكيّة تعنى ببيان أثر الاعتدادِ بالمالِ والجاهِ في التَّصَدِّي لدعوة الحقِّ ، وبيان أثرِ هذا الاعتدادِ في الاطمئنان بهذا المالِ ، وفي الحُسبان أنَّ ذلك هو السبيلُ إلى تحقيقِ ديمومة العِزَّة والسُّلطانِ ، وكيف أنَّ ذلك يحمله على إيذاءِ النَّاسِ بلسانه ويده همزاً ولمزاً ، وبيان ما سيكونُ عليه مصيره في الآخرة .

وهذا كما ترى قريبٌ جداً من حال أبي لهب ، بل إنَّ حالَ أبي لهب هو النموذجُ الذي تنطبقُ عليه سُورَةُ (الهمزة) فسورة (الهمزة) وسورة (المسد) تتلاحظان .

* * *

علاقة سُورَةِ (المسد) بِسُورَةِ النَّسَاءِ :

سُورَةُ (النَّسَاءِ) سُورَةٌ مَدْنِيَّةٌ هِيَ الرَّابِعَةُ فِي أَوَّلِ النَّسْقِ التَّرْتِيلِيِّ ، بينما سُورَةُ (المسد) المَكِّيَّةُ الرَّابِعَةُ مِنْ آخِرِ النَّسْقِ التَّرْتِيلِيِّ .

سُورَةُ « النساء » جاءت لِتُبَيِّنَ عَنْ مِنْهَا جِ بِنَاءِ الْأُسْرَةِ الْمُسْلِمَةِ عَلَى دُعَامَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ : الْعَدْلِ وَالرَّحْمَةِ وَتُبَيِّنُ أَحْكَامَ ذَلِكَ الْبِنَاءِ وَضَوَابِطَهُ وَمُظَاهِرَهُ .

وَأَنْتِ إِذَا مَا تَابَعْتَ التَّبَصُّرَ فِي مَعَاقِدِ (فُصُولِ) سُورَةِ (النساء) وَأَيَاتِهَا أَلْفَيْتِ قِيَمَةَ الْعَدْلِ وَقِيَمَةَ الرَّحْمَةِ حَاضِرَةً حَاضِرًا خَفِيًّا وَخَفِيًّا حَيًّا .

سُورَةُ (النساء) جاءت لِلْبِنَاءِ وَبَيَانِ أَثَرِ الْمَرْأَةِ فِي هَذِهِ الْبِنَاءِ . وَسُورَةُ (المسد) جاءت مُبَيِّنَةً أَثَرِ الْمَرْأَةِ فِي هَدْمِ الْأُسْرَةِ وَخَسْرَانِهَا ، فَلَيْسَ ثَمَّ امْرَأَةً هِيَ الشُّؤْمُ عَلَى زَوْجِهَا وَبَيْتِهَا كَمَثَلِ مَا كَانَتْ امْرَأَةُ أَبِي لَهَبٍ ، فَبَيْنَ سُورَةِ (النساء) وَسُورَةِ (المسد) مُقَابَلَةٌ كَلِيَّةٌ .

إِنَّ تِلَاخُظَ الْمَعَانِي عَلَى مَسْتَوَى الْجُمْلَةِ وَالْآيَةِ وَالنَّجْمِ وَالْمَعْقَدِ وَالسُّورَةِ مِنْ خِصَائِصِ الْبَيَانِ الْقُرْآنِيِّ ، فَأَنْتِ لَا تَكَادُ تَجِدُهُ فِي بَيَانِ آخِرِ عَلَى النُّحُو الْعَلِيِّ الَّذِي يَتَرَاءَى لِكُلِّ ثَاقِبِ النَّظَرِ مُحِيطُهُ .

* * *

مَوْقِعُ سُورَةِ الْمَسَدِ عَلَى لَاحِظِ سِيَاقِ الْمَعْنَى الْكَلِيِّ لِلْقُرْآنِ عِنْدَ بَعْضِ أَهْلِ الْعِلْمِ :

يَذْهَبُ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ إِلَى أَنَّ سُورَةَ (المسد) تُمَثِّلُ خَاتِمَةَ تِمَامِ الْمَعْنَى الْقُرْآنِيِّ^(١) فَتِمَامُ الدَّعْوَةِ أَنْ يَتِمَّ النَّصْرُ وَالْفَتْحُ ، وَرَمَزُهُ فَتْحُ مَكَّةَ مَرْكَزِ الْأَرْضِ

(١) يَنْظُرُ فِي هَذَا : الْبَرْهَانُ فِي تَنَاسُبِ سُورِ الْقُرْآنِ ، لِأَبِي جَعْفَرِ بْنِ الزُّبَيْرِ (ت: ٧٠٨هـ) تَحْقِيقُ : مُحَمَّدٌ شُعْبَانِي ، ط : وَزَارَةُ الْأَوْقَافِ وَالشُّؤُونِ الْإِسْلَامِيَّةِ - الْمَغْرِبِ ، سَنَةِ : ١٤١٠ هـ . ص ٣٨٤ ، وَتَفْسِيرُ نِظَامِ الْقُرْآنِ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ الْفَرَاهِي ، الْمَطْبَعَةُ الْحَمِيدِيَّةُ بِالْهِنْدِ . ص ٥٧٥

أَمَّ الْقُرَى ، ففتحتها رأسُ فتح كلِّ القرى ، فإنَّ هذا الدِّينَ داخلٌ كلَّ موضعٍ دخله ليلٌ أو نهار . كما جاء به النُّبأُ الحقُّ عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ .

روى أحمد في مسنده بسنده من حديثِ تَمِيمِ الدَّارِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ : « لَيْبُلُغَنَّ هَذَا الْأَمْرُ مَا بَلَغَ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَلَا يَتْرُكُ اللَّهُ بَيْتَ مَدْرٍ وَلَا وَبَرَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ هَذَا الدِّينَ بَعِزٌّ عَزِيزٌ أَوْ يَذُلُّ ذَلِيلٌ عِزًّا يُعِزُّ اللَّهُ بِهِ الْإِسْلَامَ وَذُلًّا يُذِلُّ اللَّهُ بِهِ الْكُفْرَ » .

وروى مسلم في صحيحه من كتاب (الإمارة) بسنده عن جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « لَنْ يَبْرَحَ هَذَا الدِّينُ قَائِمًا يُقَاتِلُ عَلَيْهِ عِصَابَةٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ » .

فتمامُ الدِّينِ النَّصْرُ والفتحُ الذي دلَّت عليه سُورَةُ النَّصْرِ ، ومن قبلها صدرُ سُورَةِ الْكَوْثَرِ ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ (الكوثر: ١) ومن الكوثر (الكثير) النَّصْرُ والفتحُ ، وتمامُ هذا الدين .

ومن تمامِ هذا الدين هلاكُ من يعانده ويعاديه ، وقد دلَّت على ذلك سُورَةُ (المسد) بإعلانِ تَبَابٍ أَبِي لَهَبٍ وهلاكه وخسرانه وامرأته ودلَّت عليه من قبلها خاتمةُ سُورَةِ (الكوثر) ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ٣)

وهذا يُلَفِّتُنَا إِلَى مَالِ صِرَاطِ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِمْ ، وَمَصِيرِ أَهْلِهِ مِمثلاً فِي سُورَةِ النَّصْرِ والفتح ، وَإِلَى مَالِ صِرَاطِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَإِلَى مَالِ صِرَاطِ الضَّالِّينَ وَمَصِيرِ أَهْلِهِ مِمثلاً فِي سُورَةِ (المسد) .

يَقُولُ المَهَامِيّ : إِنَّ مَا جَاءَتْ بِهِ سُورَةُ « تَبَت » مِنَ الدَّلَالَةِ عَلَى تَحْقِيقِ
الْخُسْرَانِ الْكُلِّيِّ الْمُفْضِيِّ إِلَى الْهَلَاكِ الْأَعْظَمِ لِأَعْظَمِ الشَّرَفَاءِ بِإِنْكَارِ هَذَا الدِّينِ
هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ . وَكَانَ قَدْ قَالَ فِي سُورَةِ (النَّصْرِ) سَمِيتْ سُورَةُ
النَّصْرِ لِأَنَّهُ ظَهَرَ بِهِ دِينَ الْإِسْلَامِ عَلَى سَائِرِ الْأَدْيَانِ ، وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ
الْقُرْآنِ^(١)

وَهُوَ بِهَذَا يَلْفَتُ إِلَى أَنَّ الْقُرْآنَ قَدْ خَتَمَ بِسُورَتَيْنِ دَلَّتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا
عَلَى أَمْرٍ هُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَقَاصِدِ الْقُرْآنِ ، وَكُلُّ وَاحِدَةٍ مُكَمِّلٌ لِلْآخَرِ .

النَّظْمُ التَّرَكِيبِيُّ (النَّصِّيُّ) لِسُورَةِ « الْمَسَد » :

اسْتَعْمَلَ الْعُلَمَاءُ الْمُتَقَدِّمُونَ قَبْلَ عَبْدِ الْقَاهِرِ الْجَرَجَانِيِّ (ت: ٤٧١هـ) كَلِمَةَ
(نَظْمٌ) ، يَرِيدُونَ بِهَا طَرِيقَةَ تَرْكِيبِ السُّورَةِ مِنْ آيَاتٍ كَمَا نَرَاهُ عِنْدَ الْبَاقِلَانِيِّ
الَّذِي ذَهَبَ إِلَى أَنَّ نَظْمَهُ هُوَ تَرْتِيبُ جُمْلِهِ وَآيَاتِهِ عَلَى نَحْوِ لَيْسَ لَهُ نَظِيرٌ فِيمَا
عَهَدَتْ الْعَرَبُ مِنْ فُنُونِ الْبَيَانِ .

النَّظْمُ عِنْدَهُ إِنَّمَا يَتَنَاوَلُ مِنْهَجَ بِنَاءِ السُّورَةِ : تَرْتِيبَ عُنَاصِرِهَا مِنْ جُمْلٍ
وَآيَاتٍ وَفُصُولٍ عَلَى نَحْوِ لَمْ تَعْهَدِ الْعَرَبُ مِنْ قَبْلُ . وَهُوَ مَا يُمَكِّنُ أَنْ أُسَمِّيَهُ
« الْبِنَاءُ التَّرَكِيبِيُّ » لِلْسُّورَةِ ، وَمَنْ أَهْلُ النَّظَرِ مَنْ يُسَمِّيهِ الْبِنَاءَ النَّصِّيَّ أَوْ عِمَارَةَ
السُّورَةِ .

وَلَمْ يَرِيدُوا بِهَا طَرِيقَةَ تَرْكِيبِ الْآيَةِ مِنْ جُمْلٍ ، وَالْجُمْلِ مِنْ كَلِمَاتٍ وَالتِّي
عُمَادُهَا عِنْدَ عَبْدِ الْقَاهِرِ تَوْخِيٌّ مَعَانِي النَّحْوِ فِيمَا بَيْنَ مَعَانِي الْكَلِمِ عَلَى وَفْقِ
الْأَغْرَاضِ وَالْمَعَانِي .

وَكَذَلِكَ نَجِدُ مَنْ جَاءَ فِي زَمَنِ عَبْدِ الْقَاهِرِ أَوْ بَعْدَهُ بِقَلِيلٍ مَنْ فَسَّرَ النَّظْمَ
عَلَى غَيْرِ مَا جَاءَ بِهِ عَبْدِ الْقَاهِرِ ، نَجِدُ الرَّاعِبَ الْأَصْفَهَانِيَّ (ت: ٥٠٢هـ) يَقُولُ:

(١) تَبْصِيرُ الرَّحْمَنِ لِعَلِيِّ الْمَهَامِيّ ٤١٦/٢ ، ٤١٧ ،

« إنَّ الإعجاز قد ذكر في القرآن » على وجهين : أحدهما : إعجاز متعلق بفصاحته ، والثاني : بصرف الناس عن معارضته .

فأما الإعجاز المتعلق بالفصاحة : فليس يتعلق ذلك بعنصره الذي هو اللفظ والمعنى ، وذلك أنَّ ألفاظه ألفاظهم ولا يتعلق أيضاً بمعانيه وما هو معجز فيه من جهة المعنى ، كالإخبار بالغيب فإعجازه [أي الإخبار بالغيب] ليس يرجع إلى القرآن بما هو قرآن ، بل هو لكونه خبراً بالغيب ، وذلك سواء كونه بالنظم أو بغيره . وسواء كان مورداً بالفارسية أو بالعربية أو بلغة أخرى أو بإشارة أو بعبارة . فإذا بالنظم المخصوص صار القرآن قرأنا .

كما أنَّه بالنظم المخصوص صار الشعرُ شعراً ، أو الخطبةُ خطبةً .
فالنظم صورةُ القرآن ، واللفظ والمعنى عنصره ، وباختلاف الصُّور يختلف حكمُ الشيء واسمه ، لا بعنصره ، كالخاتم والقرط والخلخال تختلف أحكامها وأسمائها باختلاف صورها لا بعنصرها الذي هو الذهب والفضة ، فإذا ثبتَ هذا ثبتَ أنَّ الإعجازَ المُختصَّ بالقرآن متعلقٌ بالنظم المخصوص..... تأليفه ليس على هيئة نظم يتعاطاه البشرُ ، فيمكنُ أن يزداد فيه كحال الكتب الأخر ...» (١)

والنظرُ إلى السُّورة بياناً له نظمٌ في ترتيبِ مكوناته بدءاً ومنتهاً أمرٌ قديمٌ التفت إليه أهلُ العلم واعتنوا ببعضِ حقِّه .

ومن الحسنِ أن نُنظرَ في منهجِ بناءِ المعنى في سورة « المسد » وحركة هذا المعنى الذي يحمل في مضمونه وجهاً فتياً من وجوه إعجاز القرآن ،

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) : تحقيق . محمد عبد العزيز بسيوني ، كلية الآداب - جامعة طنطا ، الطبعة الأولى : ١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م ، ٤٤/١ ، ٤٥

ويحمل في الصورة المعبرة عنه أيضاً وجهاً آخر من وجوه إعجاز القرآن ،
فهي سورة من حيث مضمونها معجزة ، ومن حيث نظمها معجزة ، ومن
حيث أسلوبها معجزة فاجتمعت فيها ثلاثة وجوه من أعظم وجوه إعجاز
القرآن التي تتكاثر مع مر الزمان ، وتنوع الثقافات والمعارف .

* * *

سورة (المسد) على قلة عدد آياتها وكلمها هي معقدان : المعقد الثاني فيه
بيان وتفصيل للأول :

المعقد الأول هو الآية الأولى وحدها : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾

(المسد: ١) .

والمعقد الآخر هو بقية السورة : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ
سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّنْ
مَّسَدٍ ۚ ﴾ (المسد: ٢-٥) .

لو أن البيان القرآني جاء بالآية الأولى وحدها لثم أصل المعنى . وحينئذ
سيتولى المتلقي تصور ما سيكون له من هذا التب : ﴿ إِنِّ شَانِئَكَ هُوَ
الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ٣) ولكن البيان القرآني جاء بالمعقد الثاني (بقية السورة)
فأبان لنا ما سنعجز عن تصوّره ، فهو يتضمّن إنباء بما سيكون له في الدنيا
مُمَثَّلًا في قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ٢) وفيما
سيكون له ولامرأته يوم القيامة ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد: ٣) الآيات ،
فذلك من أنباء يوم القيامة التي لا علم لنا بعقولنا بشيء منها البتة ، كل
ما نعرفه عنها إنّما من إنباء الوحي ولذا كان إنباء الوحي لنا بأحوالها من
فيض الربوبية من عطاءات الرحمانية والرحيمية ، والتي تستوجب علينا حمد
الله سبحانه وتعالى عليها ، فوق استحقاقه علينا حمده والثناء عليه لذاته
العلية .

ومن هذا الفيض أن يجمعَ إلى إنبائنا بهذا الغيبِ نعمة الالتفاتِ إليه وتدبره وتذكره ، والانتفاعِ بذلك في ضبط حركة حياتنا في مسيرنا إلى مصيرنا ، فتلك نعمةٌ عظمى إلى آلاءِ أعظم . والحمدُ لله ربِّ العالمين .

ولما كان المحصولُ المعرفيُّ بما يكونُ لأبي لهبٍ الذي يُنتجه التَّصوُّرُ العقليُّ مَهْمًا بلغ هذا التَّصوُّرُ العقليُّ في فتوته وفحولته وصوابه وإحاطته غيرَ ملائمٍ لحالِ أبي لهبٍ من جهةٍ ، وغيرَ ملائمٍ من جهةٍ أُخرى لما يُرادُ أن يُقام في قلبِ المتلقِّي حتى يتحاجزَ بكلِّ ما يملك في كلِّ حالٍ من أحواله عن منهجِ أبي لهبٍ وامراته - لما كان كذلك تولَّى البيانُ القرآنيُّ الإنباءَ بذلك الغيبِ الذي لا سبيلَ لنا إلى معرفتهِ إلا بإنباءِ الغيبِ ، وهذا من عظيم رحمة الله تعالى بنا ، وهو من فيضِ جمالِ الرُّبوبيَّةِ علينا .

من هنا يتبيَّنُ لك أن الآياتِ الأربعَ الأخيرةَ في السُّورةِ هي بيانٌ للآيةِ الأولى فيها . فالسُّورةُ قائمةٌ من أمرين : مجملٍ ومفصَّلٍ له ، أو من أمرٍ واحدٍ إن شئتَ : من نبيٍّ مجملٍ ونبيٍّ هو تفصيله .

* * *

وأسلوبُ الإجمالِ ثمَّ التفصيلُ هو الأسلوبُ العُمدةُ في بيانِ الوحيِ قرآنًا وسنةً .

القرآنُ كلُّه مجملٌ في سورةِ الفاتحةِ ، وقد سُمِّيَتْ « أمَّ الكتابِ » ثمَّ فُصِّلَ ما أُجْمِلَ فيها من معاني الهدى في ما تلاها من السُّورِ ، فما من معنى من معاني الهدى في أيِّ سورةٍ من السُّورِ التي تلتها إلَّا وأنتَ بِبصيرتك النَّافذةِ يُمكنك أن تلمحَ ما يتعلقُ به من معاني « سورةِ الفاتحةِ » وإنِّي لأذهبُ إلى إنك إن أردتَ أن ترجعَ كلَّ آيةٍ أو نجمٍ أو معقدٍ في أيِّ سورةٍ من القرآنِ إلى شيءٍ من سورةِ (أم الكتابِ) لكان لك ذلك ، ولو أنا سعيْنَا إلى إقامة مشروع علمي جادٍ يقدم هذا للناس لكان عملاً جليلاً ولو أني استقبلت من

عمري ما استدبرت لجعلت ذلك من همومي ولحملت طلاب العلم إليه
حمل إرشاد وتبيين وتسديد .

مُسْتَوِيَّاتُ تَجَلِّي الْجَلَالِ وَالْجَمَالِ فِي مَعَانِي سُورَةِ (الْمَسَد) :

المعنى القرآنيُّ في أيِّ سورة من سورهِ بل في أيِّ آيةٍ من آياتِه قائمٌ من
أمرين رئيسين لا يفترقان أبداً . ولا تجدُ معنى قرآنياً لأيِّ آيةٍ إلاَّ وهذان
قائمان فيه أو قلَّ هو قائمٌ منهما . لا يستقيمُ البتَّةُ أن يستنبط ناظرٌ في آيةٍ من
آياتِ القرآنِ الكريمِ - لا أستثني - إلاَّ وما يستنبطُه من المعنى قائمٌ من
هذين ، فهما عمادُ كلِّ معنى قرآني ، وإلاَّ كان هذا غيرَ جديرٍ بالبتَّةِ بأن
يُوصَفَ بأنه قرآنيُّ .

آيةٌ قرآنيَّةٌ أيُّ معنى في القرآن أن يقومَ من هذين الأمرين :

الأوَّلُ : جلالُ الألوهيَّةِ ورهبوتها .

والآخر : جمالُ الربوبيَّةِ . ورحموتها .

الأول : جلالُ الألوهيَّةِ يقيمُ المتلقِّي في مقامِ العبوديةِ الرَّاهبةِ المُخَبَّطةِ

القائنةِ الخاشيةِ .

وهذا المقامُ قد اتَّسع في كتابِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى الْحَدِيثُ عَنْهُ وَالْإِغْرَاءُ
بِهِ ، وَالثَّنَاءُ عَلَى السَّاعِينَ إِلَيْهِ وَالْقَائِمِينَ فِيهِ .

وهذا المقامُ جديرٌ بالعباد أن يقدمه وأن يُعليه على مقامِ الرَّجاءِ في
مسيره ؛ لأنَّه ممَّا يُعِينُهُ عَلَى التَّحَاجُزِ عَنْ كُلِّ مَا لَا يُرِضِي اللَّهَ جَلَّ جَلَالُهُ ،
وذلك التَّحَاجُزُ هو رأسُ ما يجبُ أن يحقِّقه العبدُ .

تحقيقُ هذا التَّحَاجُزِ أَشَدُّ عَلَى النَّفْسِ ، وَلَا تَصْبِرُ عَلَيْهِ إِلَّا نَفْسٌ فُتِيَّةٌ
تَعَشَّقُ التَّحَدِّيَّ . فَهُوَ أَحْوَجُ إِلَى حُسْنِ الدَّرَبَةِ ، وَحُسْنِ الْمَصَابَرَةِ وَالْمُشَابَرَةِ
والتَّوَاصِي بِهِ .

الخصيصة الأولى تملأ القلب مهابة ورهباً في مقامه بين يدي الله تعالى وعطاء هذا ذو أثر بالغ في حياة المسلم ووجود الأمة كلها ؛ لأنَّ حضورَ جلالِ الألوهية في القلوب وظهوره عليه يُحاجزُه عن أن يشغَلَ بغير ما يرضيه ، ويحاجز الجوارح عن أن يصدرَ عنها ما لا يرضيه ، فيسلم المرءُ ومن حوله من كلِّ ما يُبِيرُ أو يُضِيرُ ، فيتحقق للأمة سلامها الاجتماعيُّ ، فتتفرغُ لتعميرِ الحياة بطاعةِ الله عزَّ وعلا .

وشجرة الطاعة وإرفة الظلال ، تتسع لكلِّ الخلائق ، ووافرة الثمار تشبع كلَّ الخلائق .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٦)

والآخر جمال الربوبية :

وهذا يُقيمُ العبدَ في مقامِ الرجاءِ واليقينِ بواسعِ مغفرته ورحمته . وإذا ما نظرنا في المعنى القائم في سورة (المسد) ألفينا حضور الجلال والجمال فيه حضوراً يتسم بأمرٍ مهم : جلالُ الألوهية في معناها أظهر للقلب ، وأسرعُ وصولاً إليه ، كما لا يخفى عليك .

وجمالُ الربوبية في معناها وإن كان ذا خفاءٍ فإنه ليتجلى للقلب البصير : جمالُ الربوبية في معني هذه السورة لازمٌ من لوازمِ جلالِ الألوهية فيها ، فإن تبَّ أبي لهب وهلاك محرضته هو في حقيقته بشري لكلِّ صاحب دعوة حق . فمن ربوبية أهل الحق والدعاة إليه بلسان الحال من قبل لسان المقال أن يهلك أعداء الحق ، وتبيد قوتهم ، وأن يريهم الله تعالى ذلك رأي العين .

ذلك أَنَّ هذا يمنحهم فتوةً في الدَّعوة والتَّمسُّك بالحقِّ ، فرؤية النَّصر من عواملِ الثَّباتِ على الحقِّ ، والله عزَّ وجلَّ لا يدع المجاهدين بالحقِّ للحقِّ دون أن يذيقهم لذَّة ذلك ويُرِيهم ثمرة فعلهم في أنفُسِهِم أولاً ، ورأسُ ذلك الشُّعور بمعيةِ الله جلَّ جلاله ، واستشعارُ العبدِ أَنَّ أوَّل ثمارِ الإقبالِ أَنَّ الله تعالى رضيهِ لأنَّ يقومَ بدعوته - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - ، فأَيُّ جمالٍ أعظمُ من أن تشعرَ بِنعمةِ اختيارِ الله تعالى جدَّه لك لتتولَّى الدَّعوة إليه ، ويشرحَ صدركَ إليه . فسورة (المسد) حين نزلتْ وكان حالُ الدَّعوة في سياقِ المناهضة وقد حملت معنىً يعلوه جلالُ الألوهيةِ وسلطانها ، استشعرتْ قلوبهم التي أشرقَ فيها الإيمانُ أن أعداءهم إلى زوالٍ ، وأنَّ الإسلامَ ماضٍ في الأرضِ جميعها ، ذلك أنَّ هلاك رأسِ العناد ومن أغرته به آيةٌ بينةٌ على أنَّ كلَّ مَنْ كان على نهجِه ونهجها له التَّبُّ والخُسران .

وهذا هو عينُ البُشرى بالنَّصر ، ومن ثَمَّ جاءت هذه السُّورة في نسقِ التَّلاوة بعد سورة النَّصر والفتح .

ومن البين الذي لا يخفى على طالبِ علم بكتابِ الله عزَّ وجلَّ أَنَّ السُّورة الآتية عقبَ سورةٍ أخرى إنما تضيفُ إلى معناها من جنسِه ، وتؤكدُه أيضاً ، فهي تحملُ أمرين :

توكيد المعنى السَّابق .

وتأسيسُ معنىٍ آخر يضيفُ إليه .

فسورة (المسد) تؤكِّد معنى سورة النَّصر والفتح ، وهذا من بحرِ جمالِ الرُّبوبيَّة ، وتؤسِّسُ لنعمة هلاكِ أهلِ العناد وأعدائهم . وهذا من بحرِ جلالِ الألوهية . وهذه الحقيقةُ باقية ما بقيتِ الحياة ، فعلى أهلِ الحقِّ والدُّعاة إليه أن يُقيموها في قلوبهم نوراً يهدي وعزماً فتياً يحققُ الغاياتِ وإن شَطَّت .

الفصل الثاني

تفصيل التدبر في أسرار بلاغة السورة

إذا ما كان الذي مضى نظراً في كلياتٍ إلى المنهج أقرب فإن الذي آتيك بعون الله سبحانه وتعالى نظراً في كلمات السورة وفي جملها وفي آياتها ، أحاول مستعيناً بالله تعالى متجرداً من الحول والقوة أن أتدبر بعضاً مما هو مكنون فيها من معاني الهدى وأن أستنبطه وفق أصول الاستنباط وضوابطه ، وأن أقدمه إليك لعلك تذوق شيئاً ينير قلبك من أسرار بلاغتها ، فيكون لك منه زاد تصطحبه في مسيرك إلى مرضاة ربك سبحانه وتعالى .

ذلك أن التدبر والاستنباط وإن كان أمراً جليلاً جميلاً فإنه ليس غايةً في نفسه ، فليس في الإسلام اتخاذ العلم متعة نفس ، بل هو وسيلة إلى غاية أجل إنها التحقق بكمال العبودية لله رب العالمين ، وهي غاية ليس باليسير تحقيقها على كمالها ، وما على العبد إلا أن يستعين بالله تعالى ويجاهد ويجتهد ، ويجعل أمره كله مبني على قول الله سبحانه وتعالى ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة: ٥)

وقد استعاذ رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم من علم

لا ينفع^(١) ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي يشغل تحصيله عن العمل به ،
 فقليلٌ من علمٍ يعملُ به إيماناً واحتساباً خيرٌ ألفَ مرّةٍ من وفيرٍ علمٍ محققٍ
 مدققٍ لا يعملُ به^(٢).

وقد نعت من يعلم ولا يعمل بأنه من المغضوب عليه ، ومن عمل بغير
 علم بأنه ضال ، وقد هدينا في خاتمة أم الكتاب أن نستجير بالله تعالى من
 هذين : ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ
 الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة: ٦، ٧)

* * *

ومما حرصت على شيءٍ منه النظرُ في ما جاء من القراءات المتواترة في
 هذه السورة ، والنظر فيما يرد من الوقف التام والعجائز والممتنع لما لذلك
 من أثر في حسن فقه المعنى القرآني .

(١) روى مسلمٌ في صحيحه بسنده : عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ لَا أَقُولُ لَكُمْ إِلَّا كَمَا كَانَ
 رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ :
 «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ وَالْجُبْنِ وَالْبَخْلِ وَالْهَرَمِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ اللَّهُمَّ
 آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا وَزَكَّاهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا أَنْتَ وَلِيِّهَا وَمَوْلَاهَا اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ
 مِنْ عِلْمٍ لَا يَنْفَعُ وَمِنْ قَلْبٍ لَا يَخْشَعُ وَمِنْ نَفْسٍ لَا تَشْبَعُ وَمِنْ دَعْوَةٍ لَا يُسْتَجَابُ
 لَهَا». كتاب : الذكر والدعاء والتوبة . حديث رقم (٧٠٨١)

(٢) ومن العلم الذي لا ينفع العلم الذي لا يمازجه ويخالطه حكمة ، فذلك الذي ضره
 أعظم من نفعه ، بل لا نفع له البتة . إن قليلاً من العلم مع كثيرٍ من العقل
 (الحكمة) لهو أنفع لصاحبه ولمن يسمعه .

وقد ابتلانا الله تعالى بثلة ممن ينسبون إلى أهل العلم من تكاثرت في رأسه مقالات
 أهل العلم في القضايا والمسائل ، فتجد لسانه يدفق بالقول المحمول عن الأئمة
 ولكن الله تعالى قد جعل تلك الرؤوس بلاقع من العقل والحكمة ، فجاءت من
 أفواهم فتاوى هي الضلال المبين ، وأمثال أولئك فريضة على ولي الأمر - إن كان
 غير غاشٍ لشعبه - أن يُقيم عليهم حجر السُّفهاء ..

ذلك أَنَّ كُلَّ قِراءَةٍ متواترةٍ في كلمةٍ من آيةٍ تجعلُ هذه الآيةُ جديدةً من حيثُ المعنى أي أَنَّ عطاءَ هذه القراءةِ المتواترةِ يعادلُ عطاءَ قِراءةٍ أخرى في الكلمةِ نفسها والآيةِ نفسها .

وهكذا تتعدّدُ المعاني بتعدّدِ القِراءاتِ في الكلمةِ الواحدةِ في الآيةِ الواحدةِ ، فإذا كان في الآيةِ عدّةُ قِراءاتٍ في أكثر من كلمةٍ تبينُ لك تنوّعُ المعاني للآيةِ الواحدةِ ، وهذا من فيضِ عطاءاتِ القرآنِ الكريمِ .

إنَّ أدنىَّ تصرّيفٍ بيانيٍّ في أيِّ عنصَرٍ من عناصرِ الكلمةِ أو أدنىَّ تصرّيفٍ في أدائه هو بالضرورةِ قد اقتضاه معنى لا يدلُّ عليه إلا ذلك التصرّيفُ البيانيُّ أو الأدائيُّ ، وإلا كان هذا التصرّيفُ عقيماً من حيثُ المعنى ، ومثلُ هذا يجلُّ عنه كتابُ ربِّنا سبحانه وتعالى الذي أعجزَ العالمينَ بمعناه ومبناه كلاً وجمالاً وآياً ، ونجوماً ومعاقداً وسوراً .

وهذا ممّا يجبُ أن تتوفّرَ له جهودُ طلابِ العلمِ للوفاءِ ببعضِ حقِّهِ العظيمِ . وكلّ يحملُ ما يَجودُ به ربُّ العالمينِ .

* * *

ومنهج الوقف في التلاوة مرتبطٌ بتأويل المعنى وتفسيره ، ذلك أن الوقف وسيلة من وسائل التفسير ، فالقارئ هو مفسّرٌ ، وبتنوع أنماط الوقوف وفق أصول وضوابط يتنوع فقه المعنى ، وقد عني علماء القرآن بهذا الباب عناية بالغة ، لا تجد كتاباً قد عني أهله بهذا الباب فيه .

وقد هدى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ إلى وجوب تفصيل القراءة تفصيلاً يقي من عجن المعاني ببعضها ببعض .

روى أحمد في مسنده بسنده عن عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي بَكْرَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « أَتَانِي جَبْرِيلُ وَمِيكَائِيلُ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ

فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ اقْرَأِ الْقُرْآنَ عَلَى حَرْفٍ وَاحِدٍ . فَقَالَ مِيكَائِيلُ اسْتَزِدْهُ . قَالَ اقْرَأْهُ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ كُلُّهَا شَافٍ كَافٍ مَا لَمْ تُخْتَمِ آيَةٌ رَحْمَةً بِعَذَابٍ أَوْ آيَةٌ عَذَابٍ بِرَحْمَةٍ .

هذا هادٍ إلى أنه لا يستقيم أن تخلط في التلاوة آية رحمة بآية عذاب ، بل يجب أن تقف على ختام آية الرحمة ، لتستفتح آية العذاب .

يقول أبو عمر الداني مبيناً ما جاء في حديث رسول الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم :

« فهذا تعليم التمام [أي الوقف التام] من رسول الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم عن جبريل عليه السلام ، إذ ظاهره دال على أنه ينبغي أن يقطع على الآية التي فيها ذكر النار والعقاب ، ويفصل مما بعدها إن كان بعدها ذكر الجنة والثواب ، وكذلك يلزم أن يقطع على الآية التي فيها ذكر الجنة والثواب ، ويفصل مما بعدها أيضاً إن كان بعدها ذكر النار والعقاب . وذلك نحو قوله تعالى : ﴿ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة: ٨١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾ (البقرة: ٨٢) ، ويقطع على ذلك ، ويختتم به الآية . ومثله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴾ (غافر: ٦) هنا التمام .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ ﴾ (غافر: ٧) ، ويقطع عليه ، ويجعل خاتماً للآية .

وكذلك : ﴿ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ ﴾ (الإنسان: ٣١) هنا الوقف .

ولا يجوز أن يوصل ذلك بقوله : ﴿وَالظَّالِمِينَ...﴾ (الإنسان: ٣١) ويقطع على ذلك . وكذلك ما أشبهه»^(١).

ويحسن أن يكون الوقف هنا وقفاً بيناً يلفت السامع إلى أن المعنى قد تم ، وأنا ننتقل إلى معنى آخر . ليتهيأ السامع لتلقيه بما يليق به . والوقف البين يتحقق بالسكوت والتنفس بين الموضعين .

وهذا من قرى القارئ للسامع ، فلا يسلمه لسوء الفهم ، والاضطراب . وقرى العقول والقلوب بعوامل حسن الفهم والتلقى أجل منزلاً ، وأكرم عطاءً من قرى البطون بشهي المطعوم ، ولكن أكثر الناس عن ذلك غافلون . ومن الحسن أن يعنى طالب العلم بكتاب الله تعالى بهذا الباب ، ولا سيما طالب العلم ببيانه وبلاغته ، فإن هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآني .

يقول ابن الأنباري (ت: ٣٢٨هـ) :

« من تمام معرفة القرآن ومعانيه ، وغريبه معرفة الوقف والابتداء فيه ، فينبغي للقارئ أن يعرف الوقف التام ، والوقف الكافي الذي ليس بتام ، والوقف القبيح الذي ليس بتام ولا كافٍ »^(٢)

* * *

(١) المكتفى في الوقف والابتداء لأبي عمرو الداني (المتوفى : ٤٤٤هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان الناشر : دار عمار . الطبعة : الأولى ١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م . ص ٤

(٢) إيضاح في الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل ، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري . (ت: ٣٢٨هـ) تحقيق : محيي الدين عبد الرحمن رمضان . ط . مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق سنة ١٣٩١ ، ١٠٨/١ ، فقرة : ١٢٨

مدخل

في أسرار بلاغة الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم

لا ريبَ في أن من جلائل الأعمال التي يصطنعها العبد المسلم تلاوة القرآن الكريم ، فهو عملٌ جدُّ جليلٍ أثره فيمن قام له وبه إيمانًا واحتسابًا ، ومن ثم لا يكون من الشيطان الذي أقسم أن يقوم للإنسان عدوًّا مبينًا إلا أن يجاهدَ في منعه منه أو إفساده عليه .

قال الله تعالى : ﴿ قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِّنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَنِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ۝ ﴾ قَالَ أَخْرَجَ مِنْهَا مَذْذُومًا مَّدْحُورًا لِّمَنِ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿ (الأعراف: ١٦-١٨)

وصرّف الله تعالى البيان عن ذلك في قوله سبحانه وتعالى :

﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ ﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ۝ ﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَى مُسْتَقِيمٍ ۝ ﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ۝ ﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ هَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِّكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ ﴿ (الحجر: ٣٦-٤٤)

وفي قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ ۝ ﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ۝ ﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ۝ ﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ ﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿ (ص: ٧٩-٨٣)

وفي تصريف البيان عن هذه الحقيقة دعوة عظيمة إلى أن يقوم هذا التَّوَعُّدُ الشَّيْطَانِيّ في قلب المسلم لا يغيبُ عنه ولا يغيمُ البتة . بل يكون المسلمُ منه دائماً على ذكرٍ ، وعلى يقين أن الشيطان لن يكلّ ولن يملّ من السَّعي الحثيث النَّشِطِ المتنوّع في تحقيق ما توعّد به ، فلا يكونَنَّ المسلم أضعفَ عزيمة من عدوّ الله تعالى فيتخذَ الشَّيْطَانُ عدوّهُ الأوّلَ والرَّئيسَ .

وقد أكّد الله تعالى هذا الفريضة قائلاً : ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُفْرٌ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ (فاطر: ٦)

وإذا ما كان الله تعالى قد بيّن لنا عَظِيمَ عِدَاوَةِ الشَّيْطَانِ لَنَا فَإِنَّهُ في الوقتِ نفسه لم يدخلُ اللهُ تعالى في قلبِ الإنسانِ ما يزرعُ القنوطَ من دفعِ كيدِ الشَّيْطَانِ ودحرِهِ ، فيُعيقَهُ ذلكُ القنوطُ أو ما دونَهُ عن رسالتِهِ من الوجهِ مِنَ الشَّيْطَانِ لأنَّهُ ليس من أدبِ المُسلمِ وقد أيقن أن له ربّاً ، وأنّه عبدٌ ذلكِ الرّبِّ القوي العزيز وعابده أن ييأسَ من روحِ الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَا يَأْتِئُسُّ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْكُفْرُونَ ﴾ (يوسف: ٨٧) فمن رحمةِ الله تعالى أن قال جلّ جلاله : ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٧٦)

بهذا أبان القرآن عن موقفِ الشَّيْطَانِ مِنَ الإنسانِ ، وعن قيمة هذا الموقفِ ، وأثرِهِ في حياةِ الإنسانِ ، وحماهِ من أن يقومَ في قلبِهِ القنوطُ من دفعِهِ ، فدله على أن يتخذَ منه الحذرَ في كلِّ عملٍ نافعٍ له ، فإنَّ الشَّيْطَانَ لن يهدأ إلا إذا أفسده عليه فدعاه الله تعالى إلى أن يعتصمَ به سُبْحَانَهُ وتعالى منه ، ولاسيما في ما هو عملٌ جليل كمثل تلاوةِ القرآن ، فجاء في كتابِ الله تعالى الأمرُ بالاستِعاذَةِ باللهِ من الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ عند افتتاحِ قِرَاءَةِ الْقُرْآنِ : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨)

وجاء في آياتٍ أخر الأمر بالاستعاذة بالله تعالى عندما يعتري المسلم ما يعيقه عن رسالته من نزغ شيطان من شياطين الإنس : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَلِغِيهِ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (غافر: ٥٦)

أو شياطين الجن : ﴿ وَإِذَا يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠)

﴿ وَإِذَا يَنْزَعْنَكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاستَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾

(فصلت: ٣٦)

والاستعاذة « الاستجارة والتحيز إلى الشيء على وجه الامتناع به من المكروه » فدل الأمر بها في ابتداء قراءة القرآن على أن هذه القراءة مما يحتمل أن يتعرض القارئ لشيء من نزغ شياطين الإنس بما يلقونه صباح مساء من الشبهات المهتوتة ، أو لشيء من نزغ شياطين الجن بما يلقيه من الوسوس ، فتصرف النفس عن الإقبال ، ويصرف القلب عن التدبر ، فحث الله تعالى القارئ على أن يتخذ الحيلة والحذر من هذه الأفاعيل ، فعليه أن يستعين بالله تعالى من ذلك .

وإذا ما جرينا على أن الأصل في دلالة الأمر الوجوب ، إلا إذا كان في سياق الكلام المقالي أو المقامي ما يصرف عن ذلك الوجوب^(١) فإن الأمر

(١) الفصول في الأصول ، لأبي بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ) ط : ١٢ ، ١٤١٤هـ ، وزارة الأوقاف الكويتية ، ٧٩/٢ وما بعدها ، أصول السرخسي ، دار المعرفة - بيروت ، ١٤/١ . المعتمد في أصول الفقه ، لأبي الحسين البصري (ت: ٤٣٦هـ) تحقيق : خليل الميس ، ط . ١ ، ١٤٠٣هـ دار الكتب العلمية -

بيروت ، ٣٧/١ وما بعدها

بالاستعاذة بالله تعالى في قوله عزّ وعلا : ﴿ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأعراف: ٢٠٠) يفهمُ منه أنَّ الاستعاذة بالله تعالى في مفتتحِ قراءةِ القرآن واجبةٌ ، والذي يُعلَى القولَ بوجوبها عندي شديدٌ حاجةِ المسلم إليها ، وهو مُقدّمٌ على هذا العملِ الجليلِ ، فكلّما كان العملُ جليلاً كلّما كان احتشادُ الشَّيْطانِ لمنعه منه أو إفساده عليه فتيّاً ، ولاسيّما مع أولئك الذين تتجاوز تلاوتهم تلاوة حروفه إلى تدبرها وإقامة أنوارها في قلوبهم وجوارحهم ، فإذا ثواب الحرف فوق سبع مئة حسنة . أولئك يكون احتشادُ الشَّيْطانِ لشغلهم ، وإفسادِ الأمر عليهم جدّ شديد ، فهم أشدّ ما يكونون افتقاراً إلى الاستعاذة بالله تعالى من هذا الاحتشاد .

والأمر بطلبِ الاستعاذة في مفتتحِ القراءة دالٌّ على أنَّ ما هو مقبلٌ عليه العبدُ من قراءة القرآن أمرٌ مهمٌّ جدّاً ، بل هو أمرٌ جليلٌ ، لن يهدأ الشَّيْطانُ حتّى يصرفه عنه أو يُفسده عليه أو ينقصَ من أدائه له لينقصَ ثوابه عليه فإن الشَّيْطانَ عليمٌ بأنَّ الله تعالى قد تكفلَ متفضلاً أن من قرأ شيئاً من القرآن إيماناً واحتساباً فإن أدنى ما يكون له من الثواب عشر حسنات على كلِّ حرفٍ كما أنبأت بذلك السَّنة النبويّة .^(١)

(١) روى الترمذي في كتاب (فضائل القرآن) من جامعه بسنده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقولُ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ وَالْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلَاَمٌ حَرْفٌ وَمِيمٌ حَرْفٌ » .

بل إن هذا الحرف قد يكون الثواب عليه لبعض القراء أكثر من سبعمائة ضعف لما جاء في هدي النبوة النَّبَأُ عنه : روى الشيخان في صحيحهما : البخاري في كتاب الرقاق ومسلم في كتاب (الإيمان) بسنديهما عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِيمَا يَرَوِي عَنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ قَالَ : ==

من هنا كان حسناً السَّعي إلى تبصّر ما يحمله نظم هذه الاستعاذة من دقائق معاني الهدى ولطائفها لعلّ في هذا ما يحقق لنا نصيباً من قبول الله تعالى لنا ، وإقباله علينا ، وذلك مطلوب كلّ مسلم .

* * *

الاستعاذة بهذه الصيغة : « أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » أو « أَعُوذُ بِاللّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ليست بآية ، ولكنها مستمدة من آية في كتاب الله تعالى كما مضى .^(١)

وإذا ما كانت الاستعاذة هي طلبُ العوذِ والالتجاءِ والتحصّنِ والاعتصامِ والاستعانةِ بمن يُستَعَاذُ به فإنّ هذا لا يطلبه إلا مستشعرٌ بعظيم خطرٍ قادمٍ عليه أو يتوقع قدومه لما هو فيه من خيرٍ يراد استراقه منه أو منعه من الانتفاع به . ولا يطلبه أيضاً إلا موقنٌ بعجزه ، وأن من يستعيذ منه ذو قوة وغلبة هو لا يملك بذاته دفعها أو صرفها عنه ، ولا يطيق وقوعها عليه ، ولا يطلبه أيضاً إلا من هو موقنٌ أنّ له من يحميه إذا ما توجه إليه بذلك

== « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

(١) وهذه الجملة « أَعُوذُ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » تحتل أن تكون جملة خبرية ، يخبر به المرء عن حاله ، أو جملة إنشائية كأنه يقول اللهم إني أعوذ بك إلخ . ومجيء الدعاء في صورة الخبر يذهب بعض أهل العلم إلى أنّه من قبيل المجاز المرسل المركب المعادل لما يعرف بالمجاز الاستعاري المركب . فهو يقيم صورة مركبة مقام صورة مركبة أخرى بينهما علاقة غير علاقة المشابهة ، سعياً إلى أن ما دعا به استجيب له ، ووقع ، فأخبر عنه .

الطلب ، وأنه قدم بين يدي ذلك ما يجعله أهلاً لأن يستجيب له من يتحصن به ، لأنه استجاب لأمره ونهيه حين أمره بما يفعله ، وحين نهاه عما يضره ، فاستجاب ، فكان أهلاً لأن يستجيب الله تعالى له .

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ (البقرة: ١٨٦)

فمن استجاب لربه عزّ وعلا حين يأمره وينهاه فإن الله تعالى يستجيب له حين يستجير به ويستجديه عوناً وحفظه وكلاءته .

ومن استجابة العبد لربه تعالى ، استجابته لأمره في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨) فإذا قالها العبد عند مفتتح تلاوته واعياً مستبصراً ما يقول قاصده إيماناً واحتساباً ، فإنه بذلك يكون قد سعى إلى أن يجعل نفسه أهلاً لأن يستجاب لها ما طلب واستجدي من العوذ والتحصين ، فيتحقق له ذلك إن شاء الله تعالى .

* * *

قوله تعالى (أعوذ) خبر أريد به الدعاء والابتهال إلى الله سبحانه وتعالى وهذا يعلمنا أن نقدم بين يدي الطاعة إعلاناً إلى الله تعالى عظيم حوجتنا وعجزنا وعوزنا إلى عونه وحفظه ، وأننا خلاء تماماً من كل حول وقوة ، فلا يدعنا ويخلي بيننا وبين أنفسنا ، ولا يخلي بيننا وبين الشياطين من حولنا : شياطين الإنس وشياطين الجن .

وإذا ما كان البيان القرآني قائلاً : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨) فإن البيان بالفعل الماضي (قرأت) لا يعنينا

أنه يستعاضُ به من بعد الفراغ من القراءة ، فإنَّ المعنى على فإذا أردت قراءة القرآن . مبيناً عن إرادة الفعل بالفعلِ نفسه وكأنَّه قد فرغَ منه ، وفي هذا من الهدى أنَّ الشَّانَ في المسلم إذا ما أرادَ فعلَ خيرٍ فإنه عازمٌ على إنفاذه ومؤدِّيه على الوجه الأكمل ، لا يُحاجزُه عنه محاجزٌ ، فمجرد إرادته وتحرك القلب به آيةٌ على أنه كائنٌ بحولِ الله تعالى وقوته ، وفي هذا تعليم للمسلم أن يكون فتى الإرادة في الخير ، حديد العزيمة في صناعته ونشره .

ولا تجدُ في حياة المسلم معيقةً كمثلِ خور العزم ، فكلُّ مسلمٍ مريدٌ لفعلِ الخير ، إلا أنَّ كثيراً منهم لا يكاد يفعل .

من هنا يحثنا القرآن على أن نحيل إرادتنا الخير فعلاً قائماً مشهوداً . وإذا ما أضحى هذا سمناً وشعاراً ومبدءاً لكل مسلم ، فإنَّ هذا يقذفُ في قلوب أعدائهم الرُّعب . فلا تحدث أعداء الإسلام أنفسهم أن يفكروا مجرد تفكير في إيذاء مسلمٍ ما .

والحثُّ على إحالة الإرادة فعلاً يُصَرِّفُ البيانُ عنه في القرآن الكريم كي ما يتقرر في النفوس ويكون المسلم على ذكر منه .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يَتْلُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَايِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِّنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَٰكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (المائدة: ٦)

أي إذا أردتم القيام إلى الصلاة إرادةً يتحقق الفعلُ بها لا محالة .

وفي البيان عن إرادة القراءة بالقراءة ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ (النحل: ٩٨) هدايةً إلى أنّ ما إنْ تخطر في قلب المسلم إرادة القراءة إلا والشيطان له بالمرصاد ، فهو بحاجة إلى أن يستعيد بالله تعالى منه في أول مرحلةٍ من مراحل إنتاج الخير ذلك أن إرادة فعل الخير طاعة يُثاب المرء عليها ، فإن صُرف رغم أنفه عن إنفاذ ما أراد كُتب له ثوابٌ كمثّل ثواب الفعل .

روى البخاري في « الرّقاق » من صحيحه بسنده عن ابن عبّاس - رضي الله عنهما - عن النبيّ - صلى الله عليه وسلم - فيما يروى عن ربّه عزّ وجلّ قال : قَالَ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ ، ثُمَّ بَيَّنَ ذَلِكَ فَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضِعْفٍ إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ عِنْدَهُ حَسَنَةً كَامِلَةً ، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا فَعَمِلَهَا كَتَبَهَا اللَّهُ لَهُ سَيِّئَةً وَاحِدَةً » .

والشيطان جد عليمٍ بذلك ، لذا يترصد المسلم لا في فعله الخير وإنجازهِ ، بل يترصدّه في خطوطِ إرادةِ فعلِ الخيرِ على قلبه وهمّه أن يفعلهُ ، لذلك يتخذ عدته ليفسد عليه إرادته .

كلُّ هذه المعاني من فيضِ رحيميته سبحانه وتعالى ، وهو عطاءٌ عظيمٌ من عطاءات جمالِ ربوبيته جلّ جلاله ، فله الحمدُ على كلّ نعمةٍ حمداً يرضيه عنّا .

وفي البيان بالفعل المضارع (أعوذ) دلالةٌ على أنّ هذا أمرٌ مستمرٌّ مُتجدّدٌ ، كلّما فرغ من صورةٍ منه أنشأ صورةً أخرى أعلى وأقوى ، فهو في تسنّمٍ وترقٍ من حالٍ في الاستعانة والاعتصام إلى حالٍ أرقى وأرفع ، وأنّه

لا يستكين ولا يغتر ولا يغفل ، وفي هذا من إقامة الشيطان في مقام التيس من أن ينال من المسلم وإن احتفل الشيطان واحتشد لإيقاعه في الغفلة أو في الثقة بنفسه .

وتلك معانٍ جليّة في مقام هضم النفس والتواضع بين يدي الله سبحانه وتعالى .

والباء في (أعوذ بالله) للإصاق فهو يعلن التصاق لجوئه بكلاءة الله تعالى وحمايته من الشيطان ، ويعلن المسلم المتعوذ تحصنه بمنعة الله جلّ جلاله من شرّ الشيطان وشركه .

استفتح الجملة بالفعل ، دون تأخيرهِ وتقديم الجار والمجرور ، فلم يقل: بالله أعوذ ، لأنّ في تقديم الفعل (أعوذ) استهلالاً بالإعلان بحاجته وافتقاره ، وأنه يلتجئ إلى من يحميه ، فيستشرف السامع إلى أن يعلم من ذا الذي يعوذ به ، فيأتي قوله ﴿ بِاللّٰهِ ﴾ (النحل: ٩٨) فيقع في القلب موقعاً مكيناً لأنه جاء من بعد تشوّف ، واستشراف نفس .

وفي ذكر اسمه (السميع العليم) تذكير بأنّه يسمع استجارة من يستجير به ، ويعلم صدقه ومقدار يقينه وإخلاصه فيما يدعو به ، وهو السميع بخفايا كلم الشيطان وهو العليم بلطيف مكره ، وهذا يستلزم قدرته ، فإن الإنباء بإحاطة علمه تعالى إنباء بطريق اللزوم بإحاطة قدرته ، ولذا تجد البيان القرآنيّ يختم كثيراً من الآيات بأنّه بكل شيءٍ عليم ، ويختم كثيراً بقوله إنّ الله على كل شيءٍ قدير ، فهناك تلازم بين الوصفين: عليم ، وقدير .

وفي هذا ما يملأ قلب العبد يقيناً وطمأنينة أنه إنما يستعيد بمن هو السميع العليم بكلّ مكاييد الشيطان القدير على إبطالها وعلى الوقاية منها ، والقدير على ردها في نحر صانعها .

وكلمة «الشيطان» مشتقةٌ إمّا من الشَّطْنِ وهو البعدُ المديد ، سُمي بذلك لبعده عن طاعة الله تعالى منذ أن أمر بالسجودِ لأينا آدم عليه السَّلام ، فقال مستكبراً : ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (الأعراف: ١٢) .
﴿ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ (الإسراء: ٦١)

أو مشتق من الشيط أي الاحتراق ، لأنّه لما استكبرَ طرد من رحمة الله سبحانه وتعالى : ﴿قَالَ أَخْرِجْ مِنْهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الأعراف: ١٨) ﴿قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ (الحجر: ٣٤) (ص: ٧٧)^(١)

(١) ويذهبُ أبو الحسنِ الحرَّالِيُّ (ت: ٦٣٨هـ) إلى أن كلمة «الشيطان» منحوتةٌ من الأصلين : شطن ، وشاط ، فهو لما ابتعد عن طاعة الله تعالى شاط بغضبه . يقول : «{الشَّيْطَانُ} هو مما أخذ من أصلين : من الشطن وهو البعد ، الذي منه سمي الحبل الطويل ، ومن الشيط الذي هو الإسراع في الاحتراق ... ، فهو من المعنيين مشتق ، كلفظ الإنسان والملائكة» .

تراثُ أبي الحسن الحرَّالِيِّ في التفسير تحقيق الخياط ، ينشر : منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي - الرباط ، سنة ١٤١٨ هـ الطبعة الأولى . ١/١٩٦ ، ١٩٧ م وانظر : نظم الدرر للبقاعي طبع : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة : ٢٨٧/١
وإذا ما كان الله تعالى قد سمى هذا الجنس من ولد «إبليس» الشيطان» فإنه سمى الجنس من ولد «آدم» عليه الصَّلاة والسَّلام «الإنسان» .

وإذا ما كانت كلمة «الشيطان» دالةً على الشطن والبعد عن رحمة الله تعالى ودالةً على الاحتراق بغضبه فإن كلمة «إنسان» إن كانت مشتقةً من (الأنس) فإن هذا فيه إبرازٌ لسمة في فطرة هذا الجنس ، وهو أنّه يأنس بغيره من جنسه ، فهو كائنٌ اجتماعيٌ لا تستقيم حياته متفرداً متوحشاً من الآخرين ، وفي هذا دعوةٌ له إلى أن يحرصَ على تحقيق ما يُقيم هذه الخاصية : خاصية الاجتماع على الوجه الأنفع ، فلا يكون منه ما يخذشُ كمال هذه النعمة ، ولذا حرّم الله تعالى الاعتداء ==

ونعت الله سُبْحَانَهُ وتعالى الشيطان بنعتٍ كاشفٍ عن حاله ، وحال فعله وكيدِه « فقال » الرَّجِيمُ « أي المَرْجُوم ، من الرَّجَم ، وهو الضرب بالحجارة ، فهو مرجوم مطرودٌ من رحمةِ الله تعالى ، وفي هذا من إتراعِ قلبِ المستعيزِ بالثقة ، وإفعامها بالطمأنينة ، وأنَّ هذا الشيطان هو في أصله مطرود من رحمةِ الله تعالى لا نصيرَ له من الله تعالى .

﴿ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ (المجادلة: ١٩)

==على الآخرين وتوعدهم بقوله سُبْحَانَهُ وتعالى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هَمْزٍ لُمَزَةٌ ﴾ (الهمزة: ١) وجاء البيان النبوي مبيناً قوله تعالى (همزة لمزة)

روى البخاري في كتاب (الإيمان) وغيره من صحيحه بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو - رضي الله عنهما - عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « الْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ الْمُسْلِمُونَ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ مَا نَهَى اللَّهُ عَنْهُ » ورواه مسلم في كتاب (الإيمان) من صحيحه .

فقوله تعالى : (الهمزة) هو من آذى النَّاسَ بلسانه وما كان من جنسه ، وقوله تعالى: (لمزة) هو من آذاهم بيده وما شاكلها والمسلم من تطهر من هذين فلم يكن منه شيء .

وإن كانت كلمة (الإنسان) مشتقة من (النسيان) فهذا يشيرُ إلى سمةٍ ضعفٍ في هذا الجنس عليه أن يتخذ حذرَه منها ، وأن يعمل على اتقاء ضررها ، فلا يثق بمحفوظه ، ولا سيّما في ما هو عظيم الشأن وشديد الأثر ، فعليه أن يتخذ من وسائل التوثيق ما يقيه ضرر هذه النقيصة ، وهذا أيضاً يلفتُه إلى أنَّه ضعيفٌ بحاجةٍ إلى رَبِّهِ سُبْحَانَهُ وتعالى ، فلا يأنسُ بنفسه ، وبذلك يبقى على ذكر من رَبِّهِ تعالى . ويذهب الحراليّ إلى أنَّه منحوتٌ من أصلين : الأُنس والنسيان ، فهو يأنسُ بنعمة الله تعالى عليه وينسى المنعم جلّ جلاله ، فلا يشكره عليها ، ولا يوظفها فيما خلقت له على النحو الذي يرضي من خلقه ورزقه بها سُبْحَانَهُ وتعالى ..

وممّا يحسن استذكاره أن السّنة البيانيّة للقرآن أن يأتي بكلمة « الإنسان » في سياق المذمة ، ولا يأتي بها في سياق محمّدة ، بينما يأتي بكلمة « بني آدم » في سياق محمّدة أو رضا أو تعليم .

وهذا من فيض رحمة الله تعالى وربوبيته ، ودفاعه عن الذين آمنوا ، ولذا قال بعد أن أمر بالاستعاذة به من الشيطان الرجيم عند إرادة قراءة القرآن :

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾
﴿ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴾
(النحل: ٩٩، ١٠٠)

ولما كان هذا المعنى ذا أهمية بالغة في حياة المسلم لم يكتفِ القرآن بأن قال : « إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » فيفهم ضمنا أن له سلطاناً على من عداهم وهم الذين يتولونه والذين به مؤمنون بل جاء بما يُعلم بطريق دلالة المفهوم مصرحاً به ، ليكون الإثبات والنفي في درجة واحدة من مستوى التصريح به ، فيعلم أنهما على درجة سواء من أهمية الإنباء بهما ، وهذا منهج من مناهج الإبانة في القرآن . فقال « إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ » .

وجاء به في أسلوب قصر بـ(إنما) ليتمكن هذا المعنى في النفس فضل تمكن ، فيكون لها من العزيمة الفتية ما تفرُّ به من أن تكون من الذين يتولونه . وهذا هو الذي يهدف إليه الهدي القرآني .

وجاء بـ(إنما) إشارة إلى أن هذه الحقيقة أهلٌ لأن لا يتوقف في قبولها ، كما هو الشأن في البيان بـ(إنما) ولا سيما أنه ممهد لها بما قبلها من النفي . وجاء البيان الصريح بما كان قد فهم بطريق المخالفة مما سبق مفصلاً (غير معطوف) عما قبله فلم يقل (وإنما سلطانه) إيذاناً بأن معنى هذه الجملة مؤكَّد للمعنى الجملة قبلها : ليس له سلطان على الذين آمنوا . وهذا التأكيد نازلٌ على مقتضى أن من طبع الإنسان أنه لا يحبُّ أن يكون لمخلوق عليه سلطان . فأكد له هذا المعنى وقدمه . كل ذلك يمنح النفس الإنسانية فيضاً من التثقيف والترويض والتهديب .

* * *

التأويل البياني لنظم قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) :

كلُّ سُورَةٍ من كتابِ الله تعالى خلا سُورَةُ (براءة :التوبة) تستفتح في المصاحف التي بأيدي المسلمين كافةً بقول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١)

كان استفتاح سُورَةِ «المسد» بهذه العبارة ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ (الفاتحة: ١) من فيض عطاءات الربوبية ، ومن جليل النعم وجميلها ، إنَّه استفتاح يلفتُ إلى أنَّ يتبصَّر القارئُ والسامعُ إلى ما تعلَّقَ به الجارُّ والمَجْرورُ ، فإذا به يجدُ في حاله بيانًا لما يتعلَّقُ به ، فيفهمُ أنَّ الله سُبْحَانَهُ وتعالى يهديه إلى أنَّ يكونَ له من ذكرِ اسمه تعالى في ما يقومُ به ما يتوسَّلُ به ليحقِّقَ مراده على الوجه الذي يريدُ ، فإذا كان قارئًا ، فإنَّ حاله هذا يحمله إلى أنَّ يُقدِّرَ ما يتعلَّقُ به الجارُّ والمَجْرورُ ، أقرأ بسم الله أي أقرأ مستعينًا بذكر الله ، فهو من قبيل الاستعانة بالعملِ الصالح لبلوغ ما يريد ، وتعليم العبد التوسل إلى تحقيق مراده بالطاعة ، ومن عليَّ الطاعات وشريفها ذكر اسمِ الله تعالى .

هكذا يستفتح البيان القرآنيَّ معلِّمًا السبيلَ إلى الإحسان في تحقيق الأعمال . فهو دعوة ربانية إلى أن يتخذ العبدُ كلَّ الأسباب التي تجعله مُيسرًا إلى ما يعملُ ومعانًا على تحقيق مراداته ، وفوقَ هذا فيه حملٌ له على الإقرار بالعجزِ عن تحقيق مراداته بنفسه ، والإقرار بأنَّه لا سبيلَ له إلى شيءٍ إلا بعون من الله تعالى الذي يتوسل إلى تحقيقه بذكر اسم الله تعالى .

هكذا يبدأ البيان القرآني مقيمًا القارئ في مقام العبودية الذي هو أشرفُ مقامٍ ولذا كانت ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) آيةً من أم الكتاب الذي يؤوَّلُ إليها كلُّ معنى من معاني الهدى في سائر السور ، ولو أننا عمدنا إلى المجاهدة في الاجتهاد لبيان المعاني التي تؤوَّلُ إلى معنى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ في سائرِ سور القرآن لما وجدنا في العمر والجهد متسعاً
يفي هذا بعضَ حقّه ، فإنّ الأمر جلل ، فمرجعية المعاني في سور القرآن
الكريم إلى معنى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مرجعية وسيدة رفيعة القدر
عصية على الإحاطة .

* * *

وإذا ما كان من أهل العلم من يذهبُ إلى أن يقدرَ ما يتعلّق به الجارّ
والمجرور من جنس العمل الذي يستفتح به هذا القول ، فيستفتح الآكلُ على
تقدير: آكل باسم الله ، ويستفتح القارئ على تقدير أقرأ باسم الله إلخ فإنّ
منهم من يقدره ، أي أبدأ عملي بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ..

وفي تقديره عامّاً ما يجعل هذه الآية كشعار المسلم في كلّ فعل ، فأيّ
فعل تستفتح أنتَ تقيمُ في قلبك هذه الحقيقة ، وتجريها على لسانك ،
فيكونا : قلبك ولسانك رطبين بها ، فأضحت هذه الآية بمثابة ما هو أمثالٌ
عند العرب ، لا تغيّر صيغتها بتغيّر سياقاتها . فهي بمنطوقها هذا تجري في
القلب واللسان .

هذا العطاءُ حقّه عدمُ تعيين متعلّق « الجارّ والمجرور » ، فكان طيّبه أبرك
عطاءً من ذكره ، فربّ غائبٍ أفعلٌ من حاضرٍ ، وأبرك عطاءً . فاعتبروا
يا أولي البصائر .

وفي طيّ ما يتعلّق به الجارّ والمجرور تكثيرٌ للمعنى في نفس المتدبّر ،
فهو من قبيل إيجاز الحذف ، وإنّما كان كذلك ؛ لأنّ ما حذف يُمكن أن
يصرّح به ، فعُدلَ عن التّصريح به فأفاد ذلك معنى إضافياً ، فكان هذا من
الإيجاز .

أما إذا كان المحذوف ممّا لا يصرّح به في نهج العربية ، بل هو مبنيٌّ على
الطيّ كما في قولك : « محمدٌ عندي » أي كائنٌ عندي ، فطيّه لا يُعد من

الإيجاز ، لأنه لَمْ يُعَدَلْ عَنْ ذِكْرِهِ إِلَى طَيْهِ لِمُقْتَضَى اقْتِضَاءِهِ . فَإِنَّ الحذف لا يكون إيجازاً إلا إذا كان تركه إلى الذكر ممكناً عربيّةً ، واقتضى مقتضى أن يكون مطوياً ، فطوي .

وإن كان الحذفُ مما لا يُمكن تركه عربيّةً ، فهذا ليس من الإيجاز ، بل تلك سنةُ الإبانة بالعربيّة ، ولا يُنسبُ ذلك إلى المتكلم ، بل إلى حكمة اللغة نفسها ، وُفرّقَ غير خفيٍّ بين بلاغة اللغة وبلاغة المتكلم باللغة .

* * *

اختلاف العلماء في موقع تقدير المتعلق :

أهل العلم منهم من يُقدر متعلّق الجار والمجرور هنا مقدماً كما هو الأصلُ في أن يكون المتعلّق متقدماً على ما يتعلّق به ، فهو أسبقُ وجوداً مما يتعلّق به ، فحقّه أن يكون أسبقُ ذكراً إلا إذا اقتضى مقتضى تأخيرَه .

ومنهم من ذهب إلى أنّه وإن كان الأصلُ كما قالوا إلا أنّ المعنى والسياق قد يحملُ إلى أن يُقدّم الجارُ والمجرور ، لما في تقديمه من فائدة جليّة تتمثل في تحصيل معنى التخصيص الحصريّ ، فيفيد أنّه لا يبتدئُ إلا باسمه ، فهو من قصر الموصوفِ على صِفة ، قصر الابتداء على أنه متلبسٌ بذكر اسمه سبحانه وتعالى .

وهذا يلزمه أنّه لو كان هنالك إله آخر من دونه أو معه ، لكان جديراً بأن يُشاركه في أن يبتدأ باسمه ، فال المعنى إلى أنه هو وحده الله ، لا شريك له . وهذا هو تجريد التوحيد ، وهو قاعدة كلِّ عملٍ صالحٍ ، وهو مفتتح كلِّ أمر المسلم ومُختتمه .

وهذا يزيده جلاء في قلبك أن تسمع ما حكاه الله سبحانه وتعالى عن سحرة فرعون : ﴿ فَأَلْقَوْا حِبَاهُمْ وَعَصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ

الْغَلْبُونَ ﴿ (الشعراء: ٤٤) تبصر قولهم ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ ﴾ وهم لا يعلمون علم يقين أنه ذو عِزَّة لا تقهر ، وبرغم من ذلك جعلوا أمرهم بعِزَّتِهِ ، فكيف بالمسلم ؟ أليس هو الأجدر بأن يجعلَ جميعَ أمره مصحوباً بذكر اسم ربِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى . لهذا قلتُ : إِنَّ قَوْلَهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ مَالِ الْمَعْنَى فِيهِ هُوَ (لا إله إلا الله) وأنه لهذا كان جديراً بأن يكون مفتاح كل سورة ومبتدأ البيان فيها .

* * *

دلالة (الباء) في (بسم الله) :

« الباء » التي هي حرفٌ معنى ، لا حرف مبنى في لسانِ العريَّةِ موضوعَةٌ للدلالة على معنى « الإلصاق » أي أن ما تعلق به ملصق بما دخلت عليه . وهذا المعنى هو المعنى الرئيس ، بل إن سيئويه يذهبُ إلى أَنَّهُ لَا يُفَارِقُهَا ، وإن قضى سياقٌ أن تدلَّ على غيره ، فهو مع هذا باقٍ معه لَا يُفَارِقُهَا وعبارته : « فما اتَّسع من هذا في الكلام فهذا أصله » أي ما جاء من دلالتها على معانٍ آخر على سبيلِ الاتساعِ فالإلِزاقُ والاختلاطُ أصلُ هذا المعنى الاتساعي . وقد يُعبر عن الإلصاق بالمصاحبة ، وباء المصاحبة عند أهل العلم هي التي يصلح موضعها (مع) ويغني عنها نصب الفعل على الحالية .

والمصاحبة في البسملة مصاحبة ابتداء الفعل بذكر اسم الله تعالى الدال على ذكر جلاله وجماله وكماله وكل ما يليق به في القلب . وربما كان البيان بكلمة « المصاحبة » أعلى في تأويل الباء في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ .

* * *

إشراب معنى الإلصاق معاني أخر :

وإذا كان معنى الإلصاق قائماً في « الباء » حيث حلت فإنّه قد يكون متفرداً بدلالاتها عليها ، لا يخالطه غيره من المعاني ، وقد يكون مُشرباً معنى آخر استدعاه السياق ، فكان فيها حينئذٍ بمنزل الضيف على مضيفه (الإلصاق) فهي لا تتخلّى قط عن معنى الإلصاق في أيّ سياق قامت فيه . فحرف المعنى حين يُشرب معنى آخر غير الذي وضع له ، هو لا يتخلّى عن المعنى الذي وضع تخلياً كاملاً ، بل يبقى وإن أفسح المعنى الأصل (المضيف) للمعنى الضيف الذي استدعاه السياق ، فيقدمه ، فيكون أسبق وروداً على القلب ، وأظهر إدراكاً ، فهما معاً حاضران إلا أنّ المضيف (المعنى الذي وضع بإزاء الحرف وضعاً شخصياً كما يقول أهل العلم) فآثار المعنى الضيف بالظهور وسرعة إدراكه .

قلت هذا ليكون طلاب العلم على أنّ دلالة حرف المعنى على معانٍ متعددة متنوعة ، إنما هي دلالة ليست سواءً ، كلاً سيقى المعنى الرئيس الذي وُضع له هذا الحرف حاضراً أيّاً كان الذي يقاسمه الحضور في دلالة الحرف .

وهذا المعنى الموضوع له الحرف (المعنى الرئيس : المضيف) لا محالة سیرعى حق الجوار ، فكيف بحق المخالطة ، إنّّه لا محالة سيتأثر بحال المعنى الضيف لأنّه خالطه ، فيُحسنُ صحبته وضيافته ورعاية لحق الجوار فكيف بالمخالطة ، فيتراحب له ، ويتراجب به ، فيتأثر المعنى الرئيس بشيء من خصائص المعنى الوارد ضيفاً^(١) .

(١) المتبصر بحال تلاقي الأصوات الصائتة (الحركات) والصّامتة (الحروف) في بنية الكلمة العربية سيجد أمراً جديراً بالالتفات ، يتمثل في حسن العلاقات بين هذه =

وبهذا يتنوع معنى (الإلصاق) في (الباء) بتنوع ما يستدعيه السياق من المعاني فيستضيفه الإلصاق ، وبهذا تتعدد المعاني ، ويتفنن معنى الإلصاق بتنوع السياقات والمقاصد وتفننها وهذا يبرز لك اتساع الأمر ، وأن ادعاء الإحاطة بمعاني حرفٍ واحدٍ في سياقاته في كتاب الله تعالى أمرٌ لا يكون .
أنّه وجه من وجوه إعجازه البلاغيّ ، فلو رغبَ واحدٌ من أولي العزم من أهل العلم الماجدين أن يستقرأ استقرأاً تاماً معاني (الباء) في كتاب الله تعالى لأقام نفسه مقام الحرج والعجز .

=الأصوات ، فهي تتراحب فتتراجح ، وتجد الأصوات مؤثرة في ما صاحبها ، ومتأثرة بها ، ولهذا تجد علم التصريف ذا الاختصاص بصناعة الكلمة العربية من أدق العلوم في مراعاة العلاقات الصوتية بين مكونات الكلمة ، وتجد في قضايا الإعلال والإبدال أصولاً في هذا جد جواد ، لو تبصرها الناس ، واتخذوا منها دروساً عملية في علاقة بعضهم ببعض لوجدت الحياة فيما بيننا قد اتسمت بالاتساق والانسجام ، فتنتشر في الحياة نعمة «الجمال» ذلك أن عمود الجمال بين الأشياء هو انسجامها ، وكل أمة عشقت الجمال معنويه وحسيه كانت أمة عزيزة ماجدة .

إننا - طلاب العلم بلسان العربية عامة ، ولسان بيان الوحي خاصة - لمقصرون كثيراً في الانتفاع بعلم التصريف بل وبالحكمة الاجتماعية في علم نحو العربية في بناء الكلمة والجملة والفقرة والمعقد والنص .

إن في هذا من الأسرار ما يمكن أن يشكّل نظرية معرفية سلوكية ذات فلسفة في الحياة بالغة الدقة والإحكام والحكمة .

وهذا أمرٌ جديرٌ بأن تعنى به بحوث أهل العلم وطلابه ، ولا سيما بحوث الدراسات العليا والترقيات الوظيفية لأساتذة الجامعات ، بدلاً من هذا الغناء الممجوج المجترّ الذي يدفق بين رؤوسنا فتضيق صدورنا فوق ما هي مترعة ضيقاً وكمداً .

«الباء» هنا تُفيد مصاحبة الفعلِ ذكر اسمِ الله تعالى^(١).

وذكر اسمه في حقيقة أمره الذي يسترضى ، والذي حرى بكلّ مسلم أن يكون عليه الحريص ، وأن يكون له منه نصيب وافرٌ - يعنى حضوره في القلب حضوراً يتجلى أثره على الجوارح ولاسيما اللسان ، فإذا به رطبٌ بترديده . فالذكر في الإسلام ليس شقشقة السنة . كلا . اللسان ما هو إلا مجلّى لما هو في القلب . وتلك حقيقةٌ يتوارثها العقلاء :

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللِّسَانَ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا

* * *

• القول بأنّ (الباء) في الآية للاستعانة :

وقد يذهب بعض أهل العلم إلى أنّ (الباء) في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ هي «باء» الاستعانة ، والمعنى أبتدأ عملي مستعينا بذكر اسم الله ، وقال جاء في الذكر الحكيم : ﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَأَصْبِرُوا ۚ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾

(الأعراف: ١٢٨)

﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ (البقرة: ٤٥)

(١) يقول الطيبي : «باء المصاحبة تقتضي الاستدانة في قصد المتكلم ، فمعناه كل حرف مما أتكلم به بعد « التسمية » أقدر فيه « بسم الله » ففيه تعميم الفعل مع « التسمية » ، كما في قوله : ﴿ تَنبُتُ بِالدَّهْنِ ﴾ (المؤمنون: ٢٠) أي تنبت ثمارها ، وفيها الدهن (فنوح الغيب : حاشية على كشاف الزمخشري ، شرف الدين الطيبي (ت: ٧٤٣) جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم . أشرف على طبعه محمد

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾

(البقرة: ١٥٣)

وجاء في بيان النبوة فيما رواه الترمذي في (صفة القيامة) من جامعه بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كُنْتُ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا فَقَالَ :

« يَا غُلَامُ إِنِّي أَعَلَّمْتُكَ كَلِمَاتٍ :

احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ .

إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ .

وَأَعَلَّمْتُ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ . رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتِ الصُّحُفُ » .

قَالَ أَبُو عِيسَى هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ . وَصَحَّحَهُ الْأَلْبَانِيُّ فِي صَحِيحِ
وَضَعِيفِ سَنَنِ التِّرْمِذِيِّ . حَدِيثٌ رَقْمُ (١٥١٦) وَفِي صَحِيحِ مَشْكَاةِ الْمَصَابِيحِ .
حَدِيثٌ رَقْمُ (٥٣٠٢) ^(١) .

(١) من معاني الهدى في هذا الحديث النبوي الكريم أنه يفيضُ رحمةً ورأفةً من سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم على أمته فهو بالمؤمنين رؤوف رحيم : يرسم لهم طريق العزة والمنعة من كل مذلة ، والمنعة من الاحتياج لأحد غير خالقهم .

ولو أنك تبصرت في بيانه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم رأيت حرصه البالغ على ألا ينشغل قلب المسلم بأي أمر من أمور هذه الدنيا عما خلق له هذا القلب . هو حريصٌ على أن يقيم في قلوبنا الطمأنينة مما يخاف منه الناس . يؤكد لنا أن العالم كل العالم لا يملك أن يلحق بمسلم ضرراً لم يكتبه الله تعالى ، فلم الوجل من أحدٍ من خلقه ؟!!!! إنهم أجمعون أدوات يحقق الله تعالى بهم مراده .

وهذا لا يصح الاستدلال به على أنّ (الباء) في هذه الآيات وفي الحديث الشريف للدلالة على الاستعانة ، لأنّ هذا معلوم مما تعلقت به (الباء) : ﴿ أَسْتَعِينُوا ﴾ و«الباء» هنا للتعدية ، ولذا يُستغنى عنها ، ويبقى معنى الاستعانة قائماً ؟

ومن معاني الاستعانة في دلالة (الباء) عليها في ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أي أطلب عون الله تعالى بسبب طاعتي له بذكره ، فهو ضَرْبٌ مِنَ التَّوَسَّلِ بِالْعَمَلِ الصَّالِحِ ، وَهُوَ مَشْرُوعٌ .

* * *

وجه الإتيان بكلمة اسم :

وجاء البيان بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ ، ولم يقل بالله الرحمن الرحيم ، وإنما جعل مدخولَ (الباء) كلمة (اسم) فلفظ (اسم) عند العرب كلمةٌ جعلت دالةً على ذاتٍ حسية أو معنوية شخصاً أو نوعاً .

والاسم يطلق ويراد اللفظ الدالّ على المسمّى ، وقد يطلق ويراد المسمّى ألا ترى أنّ الله تعالى قد أمرنا أن نسبحه وأن نسبح اسمه ، وأن نسبح باسمه ، فقال : ﴿ لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾

(الفتح: ٩)

﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ (الأعلى: ١)

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ (الحاقة: ٥٢)

وإذا ما كان ذكر اسمه تعالى مصاحباً استفتاح كلِّ فعلٍ ، ولا سيما شريف الأفعال ، كتلاوة القرآن ، فإنّ هذا الذِّكْرُ هو آية ذكر الله جلّ جلاله في القلب ومجلاها ، وهو أمرٌ غيبي لا يطلع عليه غير الله سبحانه وتعالى ،

فَجَعَلَ ذِكْرَ اسْمِهِ عَزَّ وَجَلَّ بِاللِّسَانِ آيَةً عَلَى هَذَا الذِّكْرِ الْغَيْبِيِّ فِي الْقَلْبِ
وَالْمُنْبِئِ عَنْهُ فَكُلُّ مُسْلِمٍ يَجْعَلُ لِسَانَهُ رَطْبًا مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ جَلَّ جَلَالُهُ ، إِنَّمَا ذَلِكَ
مِنْ قَلْبٍ رَطْبٍ مِنْ ذِكْرِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

* * *

وَجَاءَ نَعْتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ إِبرَازًا لجمالِ الربوبيةِ
مقارنًا لإبرازِ جلالِ الإلهيةِ في قوله : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾ فَقَوْلُهُ هَذَا وَإِنْ كَانَ جَمَالُ
الرُّبُوبِيَّةِ فِيهِ قَائِمًا إِلَّا أَنَّ جَلَالَ الْإِلَهِيَّةِ أَسْرَعَ خَطُورًا ، وَأَظْهَرَ إِدْرَاكًا ، لَمَا
يَدُلُّ عَلَيْهِ تَفَرُّدُهُ بِاسْتِحْقَاقِ أَنْ يُسْتَصْحَبَ الْعَمَلُ بِذِكْرِ اسْمِهِ أَوْ يَسْتَعَانَ عَلَيْهِ
بِذِكْرِ اسْمِهِ مِنْ جَلَالِ الْإِلَهِيَّةِ .

وَفِي ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ أَيْضًا يَحْضُرُ جَلَالُ الْإِلَهِيَّةِ ، لِأَنَّهُ إِذَا مَا كَانَ
هُوَ الرَّحْمَنُ الَّذِي اتَّسَعَتْ رَحْمَتُهُ ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الَّذِي يَفِضُ بِخَاصِّ الرَّحْمَةِ
عَلَى الْخَاصِّ مِنْ خَلْقِهِ ، فَإِنَّهُ يَلْزَمُ مِنْ هَذَا أَنَّهُ عَزِيزٌ لَا يَنَازِعُ ، وَهَذَا مِنْ
جَلَالِ الْإِلَهِيَّةِ كَمَا لَا يَخْفَى ، وَبِهَذَا يَتَبَدَّى لَكَ أَنَّ صَدْرَ الْآيَةِ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾
يَجْمَعُ بَيْنَ جَلَالِ الْإِلَهِيَّةِ وَجَمَالِ الرُّبُوبِيَّةِ إِلَّا أَنَّ جَلَالَ الْإِلَهِيَّةِ أَسْرَعَ
حُضُورًا لِلْقَلْبِ ، وَعَجَزَ الْآيَةُ : ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يَجْمَعُ بَيْنَ جَلَالِ الْإِلَهِيَّةِ
وَجَمَالِ الرُّبُوبِيَّةِ أَيْضًا إِلَّا أَنَّ جَمَالَ الرُّبُوبِيَّةِ أَسْرَعَ حُضُورًا لِلْقَلْبِ . فَيَقِيمُ
الْعَبْدُ أَمْرَهُ بَيْنَ رَهَبٍ وَرَغْبٍ .

فِي الرَّهَبِ مَا يُحَاجِزُهُ عَنْ أَنْ يَعْصِيَ أَوْ أَنْ يَغْفَلَ .

وَفِي الرَّغْبِ مَا يُحَاجِزُهُ عَنْ أَنْ يِيَّأَسَ أَوْ أَنْ يَنْكَصَ ، فَيَقْبَى الْعَبْدُ
مَجْذُوبًا بَيْنَ الْمَقَامَيْنِ ، حَتَّى إِذَا مَا قَارَبَ الرَّحِيلَ كَانَ مَنْزِلُ الرَّغْبِ وَالرَّجَاءِ
عَلَيْهِ أَغْلَبَ . فَيُحِبُّ لِقَاءَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَيُحِبُّ اللَّهُ تَعَالَى لِقَاءَهُ .

وفي تقديم ذكرِ (الرَّحْمَنِ) على (الرَّحِيمِ) وجوه منها أَنَّ (الرَّحْمَنَ) هو ذو الرَّحْمَةِ الْعَامَّةِ ، وهي الَّتِي بها يحيا العالمون ، ولذا لم يُوصف به معرفًا بأل أو غير مضافٍ أحدٌ من العالمين ، وقد أوردَ الْمُرتدُّونَ عَنِ الإسلامِ : (رَحْمَانُ الْيَمَامَةِ) فِي مُسَيْلَمَةَ الْفَاجِرِ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مَا يَسْتَحِقُّ . و(الرَّحِيمِ) هُوَ ذُو الرَّحْمَةِ الْخَاصَّةِ الَّتِي تَكُونُ لِأَهْلِ الْهَدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالسَّادِدِ ، فَقَدَّمَ الْعَامَّ عَلَى الْخَاصِّ .

وقد جاء وَصَفُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ بِأَنَّهُ (رَحِيمٌ) : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة: ١٢٨)

وفي تقديم العام على الخاص ترقُّ في التودد إلى العالمين ، فهو يُغرينا بالإيمان به ، وبالتزلف إليه .

هو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى يَنْبُونَا أَنَّ لَهُ رَحْمَةً عَامَّةً كُلِّ الْعَالَمِينَ ، سِوَاءَ مَنْ تَعَبَّدَ وَمَنْ تَبَعَّدَ . كُلُّ لَهُ مِنْ هَذِهِ الرَّحْمَةِ نَصِيبُهُ ؛ لِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ تَعَالَى قَدَرًا ، فَلَعَلَّهُ يَتَبَصَّرُ فِي هَذَا ، فَيَكُونُ عَبْدَهُ حَسْبًا وَمَسْلَكًا وَتَعَبُّدًا ، فَتَكُونُ لَهُ هَذِهِ الرَّحْمَةُ الْخَاصَّةُ فَوْقَ الَّتِي كَانَتْ لَهُ قَبْلَ .

إِنَّهُ فَيُضُّ مِنَ التَّوَدُّدِ الْإِلَهِيِّ لِعِبَادِهِ أَنْ يَقْبَلُوا عَلَى عِبَادَتِهِ الَّتِي لَا يَعُودُ نَفْعُهَا إِلَّا عَلَيْهِمْ : ﴿ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ ﴾ (الأنعام: ١٠٤) ﴿ فَمَنْ أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ﴾ (يونس: ١٠٨) ﴿ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ﴾ (فاطر: ١٨) ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ﴾ (فصلت: ٤٦)

واسمُهُ (الرَّحِيمُ) لَمْ يَأْتِ مُفْرَدًا عَنْ اسْمِ آخَرَ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ الْحُسْنَى ، بَلْ كَانَ دَائِمًا مُسَبَّوqًا بِاسْمٍ ، وَهُوَ الْأَغْلَبُ ، أَوْ سَابِقًا ، وَهُوَ الْأَقْلُ ، بَيْنَمَا اسْمُهُ

(الرحمن) فقد جاء مفردا غير مقرون باسم آخر من أسماء الله الحسنى ،
ولا سيما في سورة (مريم)

* * *

وجه عدم مشابهة سورة (المسد) سورة (براءة) في عدم ذكر
﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) :

جاءت هذه الآية في فاتحة سورة (المسد) على الرغم من أن السورة كلها
رهبٌ ونباٌ عن سوء عُقْبَى أَبِي لَهَبٍ وزوجه ، وظاهر الأمر أن هذا لا يناسبه
الاستفتاح بذكر الرحمة العامة والخاصة ، فكان حري أن تعامل مُعاملة
سورة (البراءة: التوبة)

أمّا ترك ذكر آية ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (الفاتحة: ١) في فاتحة سورة
(براءة) فذلك توقيفٌ ، والقول بأنّ الحكمة في ذلك أنّها سورة العذاب ،
وأنّها السورة المنقّرة عن ما في قلوب المنافقين ، والسورة المبعثرة ، والمثيرة
والبُحُوث والحافرة إلخ إنما هو اجتهادٌ لا يكشف وجه ترك ذكر ﴿ بِسْمِ
اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ذلك أنا نرى سوراً آخر فيها هذه المعاني وقد
استفتحت بـ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ من هذا سورة (الماعون) وسورة
(الكافرون) وهذه السورة : سورة (المسد).

وأنت إذا ما نظرت ألفت أن السور التي قيل إنها سور عذاب وتفتيش
وبعثرة ما هو مكنون في صدور المنافقين والكافرين ونحو ذلك إنّ ذلك
هو في حقيقته رحمة بمن هم أولى بأن يُعتبر حالهم في القصد : حال أهل
الحق ، فما جاءت به سورة : (براءة ، والمنافقون ، والماعون ، والكافرون
والمسد) إنّما هو رحمة بأهل الحق ، لأنّ إنزال الفضيحة والعذاب وما شاكل

ذلك بأهل الباطل إنّما هو مِنْ فيض الرحمة بأهل الحق ، ومن لم يلحظ ذلك في مثل هذا يخسر كثيراً من فقه معاني الهدى في كتاب الله تعالى

* * *

وأهل العلم على أنّ قوله تعالى ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ تعليم للأمة أن تفعل ذلك في مفتتح أمرها ، كما علّم رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم في أوّل ما نزل على قلبه وسمعه من الوحي فهو بمثابة أمر غير مباشر بالأمر المباشر : ﴿ أَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ (العلق: ١)

وهذا لا يجعلها خبرية لفظاً إنشائية معنى ، لأنّ دلالتها على الأمر دلالة لزومية ، لم يسق البيان لذلك سوقاً أصلياً ، بل هذا مستفاد من سياق الكلام ، وأساليب الأمر والنهي غير المباشر في الكتاب والسنة جد عديده ، ومتنوعة ، بل هي أكثر ورداً فيهما من الأمر والنهي بالصيغ الموضوعية لذلك ، ومن ذلك وهو كثير الثناء على الفعل أو على فاعله ، ففيه الترغيب في فعله ، ومن ذلك الذم للفعل أو فاعله ففيه الترهيب منه ، ومن ثم تتسع صور الأمر والنهي غير المباشر في القرآن الكريم .

* * *

معاني الهدى في قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (المسد: ١)

استهلت السورة ببيانها بهذه الآية ذات الجملتين : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ و﴿ وَتَبَّ ﴾ وهما جملتان فعليتان ، وفعل « التبَّ » في العربية دالٌّ على الخسران المفضي إلى الهلاك ، فمن فسّر التباب بالهلاك ، فقد فسّره بلازم المعنى^(١).

(١) عني برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) بتفصيل دلالات الكلم التي جاءت من مادة (ت. ب. ب) على التقلبات الصوتية لأصولها ، مبيناً أنَّ هذه الكلم تدور على أصل واحد . يقول :

« ومادة (تب) و (بت) ... تدور على القطع المؤدّي في أغلب أحواله إلى الهلاك ، لأنَّ من انقطع إلى الأسباب معرضاً عن مسببها كان في أعظم تباب ، وربما كان القطع باستجماع الأسباب ، فحصل العوز بالمقاصد والمحابّ ... »

(نظم الدرر في تناسب الآيات والسور - لبرهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) ط . سنة ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية - بيروت ، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي - ٥٦٩/٨ ، ٥٧١)

يشير البقاعي إلى أنَّ كل كلمة كانت أصولها (فاؤها وعينها ولامها) الباء والتاء هي كلمة يقوم معناها على أصل القطع المفضي إلى هلكة بالغة . وهو قد عرض للكلم على التفصيل مبينا عن معانيها وحضور معنى القطع المفضي إلى الهلاك . والبقاعي ذو اعتناء بالغ بهذا في تفسيره ، فقد يستغرق تتبعه كلمات مادة واحدة العديد من الصفحات ، ممَّا يظنُّ منه القارئ العَجَل أنَّ هذا إقحامٌ يحسنُ أن يخلو منه كتابٌ لتفسير كلام الله تعالى جلّه .

وهذا في ظاهره اعتراضٌ وجيهٌ إلا أنَّ من علم ما نُصب له تفسير (نظم الدرر) رأى أنَّه اعتراض غير قويم . ذلك أنَّ ما عني به البقاعي من النّظر في التقلّبات الصّوتية لبعض المواد اللغوية التي وردت لبعض كلمها في القرآن له علاقة رئيسةً بنظرية التّناسب القرآني التي أقام عليها تفسيره (نظم الدرر) وهي أنَّ معاني الكلم والجمل والآيات والنجوم والمعاهد تدور على أصل واحد هو مركز المعنى في السّورة كلّها ، وهو ما يسميه (المقصود الأعظم).

وفي صوتِ الفعلِ من القوة ما يشي بذلك لمن ألقى السَّمْعَ ، فإذا ما سمع المرء في أوّل الأمر هذا الفعل : (تبّ) وكان ممن يعرف لما تسمع الأذن حقّه ، ألقى كلّ شيءٍ من عنايته المعنوية والحسيّة لينظر ما الذي كان له ذلك الفعلُ الرَّهْبُ ، وشأنُ كلّ عاقلٍ إذا ما كُوفِحَ بِمَرَهَبٍ انزعج واستُفِرَّ ، مخافة أن يكونَ له منه ذنوبٌ ، وهو من هو ، ألم يكن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ إذا سمع صوت الرّعد جأراً إلى الله سبحانه وتعالى^(١) مخافة أن ينزلَ به أو بأمتّه ما يكرهه ، ونحن الآن إن سمعنا صوت

= وهو هنا يبحثُ المعنى المركزيّ الحاضرَ في مدلول كلّ كلمةٍ اشتركت مع كلمٍ آخر في أصلها وإن اختلف ترتيب الأصول ، وهذا أمرٌ جدُّ لطيفٌ وطريفٌ وهو الجدير بأن يعتنى بدرسه وتحقيقه وتحليله ، إذ هو من الدراسات التي ما يزال كثيرٌ من جوانبها لم يستزرع بعد .

(١) روى الترمذي في كتاب (الدعوات : باب ما يقول إذا سمع الرعد) من جامعِه بسنده عن سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ : «اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ وَلَا تُهْلِكُنَا بِعَذَابِكَ وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ» . (حديث : ٣٧٨٣) قَالَ : هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ لَا نَعْرِفُهُ إِلَّا مِنْ هَذَا الْوَجْهِ .

ورواه أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . والحاكم في المستدرک وصححه والنسائي في السنن الكبرى والطبراني في المعجم الكبير ، وابن أبي شيبة في مسنده والبيهقي في « السنن الكبرى » وفي « الدعوات الكبير » والطبري في تفسيره الآية رقم (١٢-١٣) من سورة الرعد . حديث رقم (٢٠٢٥٩) ٣٨٨/١٦ : تحقيق أحمد شاكر

وصححه الذهبي ، وحسنه العراقي في تخريج أحاديث إحياء علوم الدين ، وضعفه الألباني في صحيح وضعيف سنن الترمذي . وغيره . واختلاف أهل العلم في تضعيفه حملني إلى الاستئناس به . ولولا ذلك لرغبت عن ذكره هنا .

الرعدِ فرحنا لما نُؤمِّله من سُقوط الغيثِ ، وكأنَّا أُمِّنا مكرَ الله سبحانه وتعالى . ﴿ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

(الأعراف: ٩٩)

وَتَمَّ فَرْقٌ بَيْنَ بَيْنِ (التَّبَّ) والخُسرانِ : التَّبُّ هو الاستمرارُ في الخُسرانِ ، فهو خُسرانٌ لا يَتَنَاهَى : ينتقلُ صاحبه من خُسرانٍ إلى خُسرانٍ أَشَدَّ وَأَعْتَى ، ولذا لا يستقيم بلاغَةُ أَنْ يُقَالَ : خَسِرْتَ يدا أَبِي لهبٍ وخسر ، لأنَّ هذا لا يلائِمُ حالَ أَبِي لهبٍ فاستعمال فعل (التَّبَّ) هنا مطابقٌ حال أَبِي لهبٍ في مسيره ومصيره .

ومن معاني الهدى في الاستفتاح بهذا الفعل أَنَّهُ يحملُ إلى القلبِ المعافى من داءِ الغفلةِ فيضاً من التَّرقبِ للعرفانِ بمن وقعَ عليه ذلك الفعل ، فإذا ما أنبأَ به (يدا أَبِي لهبٍ) أدركَ أَنَّ الذي كان من أَبِي لهبٍ أمرٌ جدُّ عظيم ، جعله مُستحقاً لأن يقعَ عليه هذا الفعل الرَّهْبُ ، ويستحقُّ أَنْ يُنبَأَ اللهُ سبحانه وتعالى به في كتابه ، فيتلى إلى يوم القيامة ، ففي هذا الاستهلال تسجيلٌ لفداحةٍ ما كَانَ منه تَرْهيباً لكلِّ سامعٍ أَنْ يَكُونَ له من هذا المَتَحَدَّثِ عَنْهُ نصيبٌ بل أدنى مقاربةٍ .

وجمهرةُ أهل العلم على أَنَّ قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ إن يكن خبراً في لفظه ، فهو دعاءٌ عليه .

والقول بأنَّ قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ دعاء والداعي هو الله سبحانه وتعالى والمدعو هو جلُّ جلاله ، فيه نظر كيف يستقيم أَنْ يَكُونَ الدَّاعِي هو المدعو؟ وما المقصِد من ذلك ؟

أليس الأعلى والأقرب إدراكاً أَنَّ هذا إنباءٌ بأنَّ ذلك له من الله تعالى . وأنَّه متحقِّقٌ لا محالة ؟

للعلماء في مثل هذا مسالك أجمل أهمها :

من تلك أنَّ هذا مسلكٌ من مسالك التعجيب من أحوال من يُتحدَّث عنه وأَنَّهُ قام مقاماً يستحقُّ به الهلاك والخسران الكامل المبين ، فأعجبوا من ضلاله وحمقه الذي بلغ به هذا المبلغ .

فهو في صورة الدَّعاء الذي هو إنشاءٌ طلبيّ ، ولكنَّه في حقيقته تعجيبٌ أي حملُ السَّامعِ على أن يتعجَّب من حاله ، والتَّعجيبُ إنشاءٌ غيرُ طلبيّ . وفي هذا مِنَ التَّفطيع لحاله تنفيراً من مقاربتة ، فمن كان هذا حاله ، فأنَّى لعاقِلٍ أن يُقارِبهم ، بله أن يخادَنهم . إنَّ هذا له الضَّلالُ المبين والمُبِير .

ومن مَسَالِكِهِمْ فِيهِ أَنَّ هذا تعليمُ المؤمنِ أن يدعو عليه بهذا ، وهذا يفهم منه أنَّ من دعا على أحد بمثل هذا ، فهو شديد النَّفرة من حاله وسياقه ومَنَاحِيهِ ، وهو إلى مباحضة منهاجه جدُّ عظيم ، فكأنَّه يحملهم إلى متاركة مناهجه ومجانبتة ، وأنَّ يُعلنوا بالدُّعاء عليه بهذا كيما تُشَدَّ المفاصلة بينهم ، والدُّعاء على الظُّلوم من أسلحةِ المؤمنِ الَّتِي لا تخيبُ ومن كره أو منع الدعاء على الظالمين فكأنَّه رضي بالظلم أو كأنَّه يعترف بأنَّه ظالم فكُره أو منع من الدعاء عليه ..

* * *

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنَّ قَوْلَهُ تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ليست بدعاءٍ عليه ، بل هي نَبَأٌ مِنَ اللَّهِ عَظِيمٌ ، هي إخبارٌ بغيب مُستقبل سَيَقَعُ لا محالةً ، فهو وجه من وجوه إعجازِ الْقُرْآنِ .^(١) وهو مسبوقٌ إلى هذا ،

(١) عبد الحميد الفراهي في تفسيره (تفسير نظام القرآن) يجهرُ بأنَّ السُّورة كلها إنما جاءت نَبَأً بغيبٍ وليس فيها دعاءٌ ولا ذمٌّ لأبي لهب .

وسأعملُ إن شاء الله من بعد هذا على تحرير نصِّ تفسيره سورة (المسد) كاملاً وعلى تعليق حواشيه ونقد مسائله خدمةً لطلاب العلم بكتابِ الله سبحانه وتعالى =

فَمِمَّا ذَهَبَ السَّهْلِيُّ إِلَيْهِ فِي «الرَّوْضِ الْأَنْفِ» أَنْ قَوْلَهُ تَعَالَى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ «لَيْسَ مِنْ بَابِ ﴿قَتَلَهُمُ اللَّهُ﴾ وَلَكِنَّهُ خَبَرٌ مُحْضٌ بِأَنْ قَدْ خَسِرَ أَهْلُهُ وَمَالُهُ»^(١)

وهو عِنْدِي الْأَعْلَى ، فَالسُّورَةُ إِنْبَاءٌ بِغَيْبٍ فِي مَفْتَحِ الدَّعْوَةِ : إِنْبَاءٌ بِهَلَاكِ رَأْسِ الْكُفْرَانِ ، مِثْلُ مَا كَانَتْ سُورَةُ (النَّصْرِ) إِنْبَاءً بِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ وَسُطُوتِهِ عَلَى هَذِهِ الْأَرْضِ ، وَأَنْ مَعْقِلَ الشَّرِّكَ سَيَخْضَعُ لِدَوْلَةِ الْإِسْلَامِ ، فَتَعُودُ مَكَّةُ مِنْ أَمِّ قُرَى الْكُفْرَانِ إِلَى أَمِّ قُرَى الْإِيمَانِ^(٢) .

=وعوناً لهم على تثوير مقالات أهل العلم واتخاذ موقفٍ علميٍّ موضوعيٍّ ممَّا جاءَ عنهم وكتبَ قد بدأتُ في هذا حتى منتصفِ تفسيرِ السورة ثم توقفتُ ، ولا أدري لم صُفْتُ عَنْ اسْتِكْمَالِهِ ، وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا يَرْضِيهِ .

(١) الرّوض الأنف للسّهيلي (ت: ٥٨١هـ) (م.س) ١٧٦/٣

(٢) لعلماء أصول الدين حديثٌ وسيعٌ في شأن أن سورة «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ» إِنْبَاءٌ بِغَيْبِ مُحَقِّقِ الْوُقُوعِ ، وَكَانَ حَدِيثُهُمْ هَذَا فِي وَجْهِ الْإِلْحَادِ الَّذِي كَانَ يَمَارِسُهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْفِرْقِ الضَّالَّةِ ، وَعَلَى رَأْسِهِمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ

قَالَ أَبُو بَكْرِ الْفَرِيَّابِيُّ (ت ٣٠١هـ) «سَمِعْتُ أَبَا حَفْصٍ عَمْرُو بْنَ عَلِيٍّ يَقُولُ : سَمِعْتُ مُعَاذَ بْنَ مُعَاذٍ ، وَذَكَرَ قِصَّةَ عَمْرُو بْنِ عُبَيْدٍ : إِنْ كَانَ ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ ، فَمَا عَلَى أَبِي لَهَبٍ مِنْ لَوْمٍ .

قَالَ أَبُو حَفْصٍ : فَذَكَرْتُهُ لَوْكَيْعِ بْنِ الْجَرَّاحِ ، فَقَالَ : مَنْ قَالَ بِهَذَا الْقَوْلِ يُسْتَتَابُ ، فَإِنْ تَابَ ، وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ» . (كتاب القدر : للفريابي : أبو بكر جعفر بن محمد ابن الحسن بن المُسْتَفَاضِ الْفَرِيَّابِيِّ ، تحقيق : عبد الله بن حمد المنصور ، ط . ١ ، ١٤١٨هـ ، أضواء السلف . وانظر : السنة ، لعبد الله بن أحمد بن حنبل (ت : ٢٩٠هـ) تحقيق محمد بن سعيد القحطاني ، ط . ١ ، ١٤٠٦هـ نشر : دار ابن القيم - الدمام ، ٤٣٧/٢

والإبانة عن أصول الديانة ، لأبي الحسن الأشعري (ت : ٣٢٤هـ) تحقيق : فوقية حسين محمود ، ط . ١ ، ١٣٩٧هـ ، دار الأنصار - القاهرة . ص ١٩٤ ، ١٩٥) ==

وقوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ناظرٌ إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ﴾ (الكوثر: ٣) وإلى قوله عز وجل في سورة (الكافرون) : ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ ﴾

ومثلما كانت سورة (النصر) ناظرة إلى قوله تعالى : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ وإلى قوله تعالى في سورة (الكافرون) : ﴿ وَلِي دِينٍ ﴾ .
وأهل العلم يلتفتون إلى توجيه ذكر «اليدين» في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ولهم في هذا كلامٌ وسيعٌ .^(١)

=والاعتصام ، للشاطبي (ت : ٧٩٠هـ) تحقيق : سليم بن عيد الهلالي ، ط . ١ ،

١٤١٢هـ ، نشر : دار ابن عفان ، السعودية ، ٢٩٧/١

فالقول بأنه نبأ عن غيبٍ مستقبل دالٌّ على وجهٍ من الإعجاز نظر إليه العقل المشبوبٌ بنيران الفتنة والضلالة على أنه من الظلم المبين ، وأنَّ أبا لهب ليس عليه من بأسٍ في كفره .

كذلك يلبسُ أحفاد أبي لهب ، وينشرون إضلالهم . وما علموا أنَّ الله سبحانه وتعالى قد هدَى أبا لهب وغيره النجدين ومنحه نعمة الاختيار ، فاختار سبيل الضلالة ، فما أرغمه الله سبحانه وتعالى على غير ما اختار ، وأبو لهب وأحفاده حين اختاروا الضلالة سبيلاً لم يكونوا يعلمون أنَّ الله تعالى عالمٌ بأنهم سيختارون ذلك حتى يقولوا إن علمه حملنا على ذلك ، فعلم الله تعالى بما سيكون ليس هو الحامل على الفعل .

(١) ينظر من شاء : تفسير الطبري . تحقيق شاکر . نشر : مؤسسة الرسالة . ط . ١ ، عام

١٤٢٠ هـ . ٦٧٥/٢٤٠ وتفسير الرازي : نشر دار إحياء التراث العربي - بيروت .

الطبعة : الثالثة - ١٤٢٠ هـ . ٣٤٩/٣٢ والكشاف للزمخشري ، ومعه فتوح الغيب

عليه للطبيبي ٦٢٣/١٦ والمحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز ، لابن عطية

الأندلسي (ت : ٥٤٢هـ) . تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد . نشر دار الكتب

العلمية - بيروت . ط . ١ ، ١٤٢٢ هـ . ٥٣٤/٥ ونظم الدرر في تناسب الآيات

والسور للبقاعي (ت : ٨٨٥هـ) نشر : دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة . ٣٢٩/٢٢

والأعلى عندي أن قوله ﴿يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ يهدي إلى هلاك القوة التي بها يُعاند الحقّ ، والتي يحسب أنها مُخلدة ذكره ، فإذا هو هُمة بلسانه كما كان يفعل برَسُولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ولمزة بيده كما كان يفعل مع المستضعفين من أتباع سيّدنا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، فويل لكل هُمزة لمزة من أحفاده في كلِّ عصرٍ ومصرٍ .

إن أنكى تهديدٍ ونكالٍ للطغاة الفجرة ما كان فيه سلبهم قوتهم وجاههم وسلطانهم وما كان مُحققاً ذلهم وهوانهم على مرأى ومسمعٍ ممّن كانوا مُتسلّطين عليهم ، فإذا ما سَمَعَ الطاغيةُ التَّهديدَ أو الإنباءَ بِمُحَقِّ ذلك كلّهِ وصيرورته هباءً خالاً مُستذلاً من كل ما حوله كان ذلك أعتى وأنكى ما يلقي من الجزاء في دُنياه .

إنَّ أوّل ما يقصمُ ظهرَ الفاجرِ هلاكُ سُلْطانه قبلَ هلاكِ نفسه ، فذلك يُقيمه في عذابٍ أليمٍ مهينٍ مقيمٍ ، مما يجعله يتمنى هلاك نفسه ، ويجعله مَطْلوبه ، وهو من أعتى ما يبلغه الطاغيةُ من هوانٍ . فكلُّ مُتترسٍ بما كسبت يده من مالٍ وجاهٍ وولدٍ وعتادٍ حين يهدّدُ بهلاكِهِ يكونُ له من ذلك عذابٍ مقيمٍ مهينٍ . هكذا استحالَ حالُ أَبِي لَهَبٍ على رؤوسِ الأشهاد ، ممّا جعل نفوسَ المُستضعفين من حوله متطلعةً إلى لحظاتٍ تساقطِ الهوانِ والذلِّ عليه .

وفي هذا أيضاً إنباءٌ لكلّ من كان على منهاجه أن ما أنت عليه من جاهٍ وسلطنةٍ ، ومالٍ إنّما هو هالكٌ لا محالة ، وأنّ ذلك لن يُغني عنك شيئاً .

كذلك يُعلّمنا إنباءُ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِقوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ منهجية استفتاحٍ إذلالٍ عتاةِ الفجرة ، فإيراد كلمة ﴿ يَدَا ﴾ هنا ليس من قبيل الإقحام ، ولو لم تكن لكان الأمرُ غيرَ مُتسقٍ معَ منهجيةِ إنزالِ الهوانِ بالطاغيةِ الَّذي جمعَ مالاً وعدده يحسبُ أن ماله أخلّده .

إِنَّهَا فَاتِحَةٌ دَامِغَةٌ ، وَلَا سِيَّما أَنَّ أبا لَهَبٍ الْعَلِيمَ بَأَنَّ ما يَنْبِئُ بِهِ ابنُ أَخِيهِ
 سيدنا رسولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ إِنَّما هو حقٌّ وصدقٌ ،
 فما جَرَّبُوا عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ كَذِبًا قطَّ .

* * *

وفي الإعرابِ بهذه الكُنية ﴿أَبِي لَهَبٍ﴾ معادلةٌ للإعرابِ عن امرأته بقوله
 تعالى ﴿حَمَلَةَ الْخَطْبِ﴾ على ما سيأتيك إن شاء الله تعالى ، فهو من
 تلاحظِ الثُّعُوتَ وتعادِلها ، وهو ضربٌ من الاتساقِ والانسجامِ الذي هو
 جوهرُ الجمالِ الحسيِّ والمعنويِّ .

الإعرابُ عنه بهذه الكُنية (أبو لَهَب) لا يَحْمِلُ تَكْرِيمًا كما هو الغالبُ
 على التَّكْنِيَةِ في سُنَّةِ التَّخاطُبِ عند العربِ^(١) .

(١) يذهبُ عبدُ الحميدِ الفِراهي إلى أن الإعلان عنه بـ«أبي لَهَب» ليس فيه شتمٌ ولا ذمٌّ،
 بل هو إلى التَّكْرِيمِ أقرب ، وهذا من عبدِ الحميد غير حميد .
 حملة عليه رغبته في تقوية ما ذهب إليه من أن قولَ الله سبحانه وتعالى : ﴿تَبَّتْ
 يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ليس دعاءً على أبي لَهَبٍ ، وليس شتمًا له ، وهذا في نفسه من
 الفراهيِّ مقبول ، ويُمكنه أن يقرّره بغير الذهابِ إلى أن التَّكْنِيَةَ بـ«أبي لَهَب» إلى
 التَّكْرِيمِ أقرب .

وهذا يبين لك أنَّ الرَّغْبَةَ في مناصرة رأيٍ أو رؤية - وإن كنتَ في قامَةِ الفراهي
 العلمية الشَّامِخَةِ - قد تدفعُك إلى القول بما لا يُقْبَلُ .

إنَّ الرَّغْبَةَ في هذه المناصرة لعائقٌ من عوائقِ التفكيرِ العلمي إلى استبصار الحقيقة ،
 فاحذرْها ، ولن تستطيع أن تُفَكِّرَ تفكيرًا مستقيمًا إلَّا إذا أمكنك العرفانُ بعوائقِهِ ،
 وبأثرِها ، فاجتهد في تحقيقِ هذا اجتهداك في العلمِ بما يُضَيِّرُ صِحَّةَ جسدك ،
 فصِحَّةُ قَلْبِكَ (عقلِكَ) وصوابه أنفعُ لك من صِحَّةِ جسدك ، فإنَّما أنت بأصغرَيْكَ :
 قَلْبِكَ وَلِسَانِكَ

والقولُ بِأَنَّهَا كُنْيَةٌ تُلَوِّحُ إِلَى مَا كَانَ لَهُ مِنْ وَضَاعَةٍ وَجْهٍ - وَإِنْ صَحَّ أَنَّهُ كَانَ وَضِيءَ الْوَجْهِ ذَا غَدِيرَتَيْنِ - إِنَّمَا هُوَ قَوْلٌ لَا يَسْتَقِيمُ مَعَ سِيَاقِ السُّورَةِ مِنْ جِهَةٍ ، وَمِنْ ثَانِيَةٍ مَتَى كَانَ الْقُرْآنُ يَلْتَفِتُ إِلَى اعْتِبَارِ الْحُسْنِ الْجَسَدِيِّ . وَمِنْ ثَالِثَةٍ أَلَيْسَ الْأَلِيقُ بِتِلْكَ الْوَضَاعَةِ الْحَسِيَّةِ أَنْ يُكْنَى بِمَا يَحْمَلُ إِلَى الْقَلْبِ إِشْرَاقَ النُّورِ صَافِيًّا مِنَ الْإِحْسَاسِ بِالْهَلَكَةِ مِثْلَ أَبِي الضِّيَاءِ أَوْ أَبِي النُّورِ أَوْ أَبِي الْحُسْنِ مِثْلَمَا كُنِّيتَ زَوْجُهُ أُمَّ جَمِيلٍ ؟!!!^(١)

الإِعْرَابُ عَنْهُ بِهَذِهِ الْكُنْيَةِ إِشَارَةٌ إِلَى حَالِهِ فِيهِمْ مِنْ جِهَةٍ وَإِلَى حَالِهِ هُوَ فِي مَصِيرِهِ الْآخِرِيِّ مِنْ أُخْرَى .
أَمَّا حَالُهُ فِيهِمْ ، فَهُوَ مُصَدِّرُ اللَّهَبِ الَّذِي هُوَ رَمَزُ الْإِبَادَةِ ، فَكُلُّ مَنْ قَارِبَهُ كَانَ لَهُ مِنْ هَذَا اللَّهَبِ نَصِيبٌ .

وَأَمَّا حَالُهُ فِي مَصِيرِهِ الْآخِرِيِّ ، فَإِنَّهُ سَيَصَلِّي نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ .

* * *

وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ جُمْلَةً فَعَلِيَّةً مُجْرَدَةً مِنَ التَّوَكِيدِ ، فَلَمْ يَقُلْ : لَقَدْ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ، لَفَتْأً إِلَى أَنَّ هَذَا النَّبَأَ هُوَ الصَّدَقُ وَالْحَقُّ وَالْيَقِينُ فَلَا يَفْتَقِرُ إِلَى أَنْ يُؤَكَّدَ ، فَبِهِ مَا يُغْنِيهِ عَنْ تَوَكِيدِهِ مِنْ خَارِجِهِ ، أَلَا تَرَى أَنَّ الْإِعْرَابَ عَنْهُ بِـ (أَبِي لَهَبٍ) مِنْ أَعْظَمِ الْمُؤَكَّدَاتِ اسْتِحْقَاقَهُ هَذَا التَّبَّ ، فَإِذَا مَا كَانَ أَبَا لَهَبٍ ، فَمَا الَّذِي يَكُونُ مَصِيرُهُ فِي مَنْطِقِ الْعَقْلِ الْفُطْرِيِّ؟ أَلَيْسَ عُقْبَى اللَّهَبِ الْهَلَاكُ وَالْفَنَاءُ ، فَكَيْفَ بِأَبِي لَهَبٍ ؟!!!

(١) رَوَى مُسْلِمٌ فِي كِتَابِ (الْبِرِّ وَالصَّلَةِ) مِنْ صَحِيحِهِ بِسَنَدِهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى صُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ »

يسلك أهل البيان العالي إلى ترك التوكيد بمؤكد خارجي إعراباً عن أنَّ ما هم مُخبرون به من الوثاقة واليقين ما لا يحتاج هو إلى توكيدٍ ، وما لا يحتاج المُخبر به ذو العقل الفطري إلى أن يؤكد له ، لأنَّ منطق العقل الفطري ، لا يمكن أن يتوقف في قبوله فضلاً عن أن يتشكك ، فضلاً عن أن يردّه ، وهذا نهجٌ من أنهاج البيان القرآني في ترك التوكيد .

وسنة البيان القرآني في تجريد النبا من التوكيد ، مما يحسن أن تتفرغ له دراسة علمية تكشف عن مقتضيات ترك التوكيد . وتكشف عن أثر هذا التّرك في تقرير المعنى وفي توطينه ، وفي تفعيله في النفس المستقبلة هذا النبا . فكثير من طلاب العلم شغلوا بدراسة التوكيد : مقتضياته وطرقه ، وبدراسة ما يترتب عليه من تقرير للمعاني في القلوب ، ولم يلتفت كثير إلى أن يُعطي تجريد النبا من التوكيد هذه العناية على الرغم من أن عبد القاهر لفتنا لفتاً قوياً إلى أهمية دراسة بلاغة الصمت أو السكوت ، وأنها بلاغة تنبعث في غالب الأمر من أمر في المعنى الذي يتكلم فيه وهذا بابٌ من العلم كأنه البكر أو كأنه الأرض الموات ، ومَن أحيى أرضاً ميتة فهي له كما هدت السنة النبوية ، (١)

وإحياء موات العلم إن لم يكن مقدماً على إحياء موات الأرض فهو كمثله فضلاً وأثراً في الأمة ، وحرى بنا أن نعلم أنفسنا وأبناءنا منهاج إحياء موات العلم النافع وأصوله وضوابطه وأدواته . فكم من أرضٍ استزرعها الأئمة

(١) روى أبو داود في كتاب (الخراج) من سننه بسنده : حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ حَدَّثَنَا أَيُّوبُ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ سَعِيدِ بْنِ زَيْدٍ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « مَنْ أَحْيَا أَرْضًا مَيْتَةً فَهِيَ لَهُ وَلَيْسَ لِعِرْقٍ ظَالِمٍ حَقٌّ » .
(صححه الألباني : سلسلة الأحاديث الصحيحة : ٥٦٨).

فأنبتت وأورقت وأزهرت ثم أثمرت ، وهي اليوم قفرٌ بوارٌ من رغبنا عنها
وانشغالنا برجيع الأعاجم وبرميم سَمَديرهم .

* * *

جاءنا ابنٌ كثيرٌ وحده بإسكان « الهاء » من ﴿ أَلَيْ لَهَبٍ ﴾ فكانَ وحده
المتشرفَ بتحمّلِ هذه القراءةِ وجاءنا سائرُ العشرةِ بفتح (الهاءِ) منها .^(١)

(١) تفرّدُ القارئُ من العشرةِ الثّقَاتِ بتحمّلِ قراءةِ هو من معالمِ التشرفِ بالتفرّدِ ، وكأنّه
في هذا أُمّةٌ وحده ، ولو أنّه ما تحمّلَ لخسرتِ الأُمّةُ أيّما خسارةً ، فجنّده الله
سُبْحَانَهُ وتعالى للقيامِ بهذا الشرفِ العظيم وهذا ممّا يذكرُ في مناقبه .
ومثله تفرّدُ الصّحَابِيُّ بروايةِ حديثٍ عن النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ
وسلّم هو من مناقبه ، ولا يظنّ مبتدئٌ في طلبِ العلمِ أنّ هذا ممّا يُضعِفُ الحديثَ
روايةً ، كلاً ، لا يقولها من ذاق شيئاً من العلم ، لأنّ ضعفَ بعضِ الأحاديثِ سنداً
لا يأتي قطُّ من قبلِ الصّحَابِيِّ ، وإنّما يأتي ممّن جاء بعده من التابعين ومن بعدهم
فحملَ عنه .

كذلك تفرّدُ القارئُ بحملِ وجهٍ لا يجعل ما اجتمع عليه الآخرون أقوى وأعلى ،
فهذا لا يقال ، فليس في القرآن من آياته ما هو أعلى وما هو عال بل كلّ طبقةٍ
واحدة . وكذلك القراءات العشر المتواترة هي كلها طبقةٌ واحدة ، ومن فاضل بين
ما تحمّله القراء العشرة الثّقَاتِ ، فقد دفع بنفسه فيما لا يحمّدُ عليه أبداً ..

وما تحمّله ابن كثير من قراءةِ إسكان ثاني الثلاثي المتحرك بالفتح ، وتحريك
الساكن بالفتح كما في نهر ، ونهر ، وشعرٌ وشعر ، هو في العريّة سائغٌ شائعٌ ،
وهو هنا في (لهب) قرآنٌ يتلى ممّا جعل لهذه السّنة الأدائيّة عند العرب تمكّناً .
فكل ما جاءت به القراءاتُ القرآنيّةُ ممّا كانت تعرفُ العرب ، جعلَ لهذه اللهجاتِ
في هذا الموضع الذي اصطفاه القرآن الكريمِ مزيّةً تفوقُ بها غيرها ممّا لم تصطفِ
القراءات منها

وفي تسكين عَيْنِ الكلمة في (لهب) لفتُ الانتباه ، بالانتقالِ من فتح إلى سُكون ،
فالمغايرةُ تكسرُ درجة الإلفِ فتلفت الانتباه .

وأجمعَ حملةُ القراءات على فتح (الهاء) من ﴿ذَاتَ هَبٍ﴾ وما خالف في هذا أحدٌ منهم ، وذلك آيةٌ بينةٌ على أنَّ القراءاتِ ما هي بإمكاناتٍ لغويّةٍ نحويّةٍ لهجيّةٍ ، فما جاز لغةً جاز قراءةً . كلاً ، فلو كان ، ما اختلفوا في ﴿أبي لَهَبٍ﴾ وأجمعوا في ﴿ذَاتَ هَبٍ﴾ . إنَّ هي إلا التَّلَقِّي والتَّحْمِلُ ، وأمانةُ النقلِ ، فجزاهمُ اللهُ سبحانه وتعالى عنا خيرَ الجزاءِ .

ولستُ هنا إلى ما ذهب إليه بعضُ أهلِ النَّظَر من أنَّ تركهم التسكينَ في ﴿ذَاتَ هَبٍ﴾ من أنَّها فاصلةٌ حفاظاً على التوافقِ الصَّوتي ، فهذا يُشعرُ بأنَّ القراءَ رضيَ اللهُ عنهم لهم الخيرةُ في أن يفعلوا ، وأن يتركوا . كلاً .

هم حَمَلُوا ما بلغَهم عن النبيِّ صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلّم بالسندِ الوثيق ، فلو أنَّه صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلّم قرأ بإسكان (الهاء) في ﴿ذَاتَ هَبٍ﴾ لحملوا ذلك عنه صَلَّى اللهُ عليه وعلى آله وصحبه وسلّم ، فالأمرُ كُلُّه مرجعهُ أمانة في التَّحْمِل ، وفي التَّجَرُّدِ مِنَ الرَّغْبَةِ في أن يكونَ لهم غيرُ ذلك ، وهو شرفٌ لا يُدانيه أيُّ عملٍ آخر ، فاحرصْ على مثله تكن الدنيا تحت قدميك ، وتكن الآخرة في يديك إن شاء الله تعالى ..

* * *

من معاني الهدى في عطف قوله (تعالى) ﴿وَتَبَّ﴾ على الجملةِ الأولى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ أنَّ الجملةَ الثانيةَ ﴿وَتَبَّ﴾ تؤسِّسُ لمعنى جديدٍ ، هو هلاكُه من بعدِ هلاكِ يَدَيْهِ . فعطفها عليها اقتضاه ما فيها من معنى جديد ، وهذا العطف لفتَ إلى هذه المغايرة ، ولولا القصدُ إلى لفتِ البصائرِ إلى هذا المعنى الجديدِ المحمولِ في الجملةِ الثانيةِ لما جاءت هذه (الواو) التي تفيد عند النُّحاة معنى المشاركة في الإنباء ومن ثم هي مثلها لا محلُّ لها من الإعرابِ .

وهي عند البلاغيين تفيدُ أيضاً اللَّفْتَ إِلَى أَنَّ ثَمَّ جديداً في ما بعدها وليست وظيفته توكيدُ ما قبلها فحسبُ ، بل يُضيفُ إلى ذلك جديداً هو الأعلى في القصديّة ، ولما كان هو الأعلى في القصديّة استعلى الإتيان بـ(الواو) ولولا هذا لكان الأعلى تركُ (الواو) فصلاً بين المؤكّد والمؤكّد المعروف عند البلاغيين بِكمال الاتصال أو الاتصال إلى غاية كما يقول عبدُ القاهر .

المُهمُّ أَنَّ ما بعد (الواو) حينَ يكونُ مقارباً ما قبلها في المعنى ، فإنّ (الواو) تلفتنا إلى أنّ القصد ليس إلى توكيدِ ما تقارباً فيه ، بل إلى ما تحمله من عطاءٍ جديدٍ ، ولما كانت بعضُ النفوسُ لا تحتاج إلى أن يكرّر لها ما سبق أن جاء به النّبأُ فربّما لا يمنحه عنايةً عليّةً ، فإنّ (الواو) تأتي لتنبّه إلى أنّ فيما هو آتٍ بعدها جديداً ، فحرى أن يُمنَحَ هذا المعنى الجديدُ حقّه من العناية .

هذا الذي قلّته يَحسُنُ أن تصحبه في تدبرك المواقع التي تعطف فيها الجمل المتقاربة في المعنى ، فيظنّ أنّها هيَ هيَ أو ما جاءت إلا مؤكدةً مضمونَ ما قبلها ، ولكنّ العقلَ البلاغيّ يلتفتُ بهذه الأداة (الواو) القائمة بين الجملتين المتقاربتين إلى ما في الجملة الآتية بعدها من معنى جديدٍ يُضافُ عطاؤه إلى عطاء الجملة التي قبلها^(١).

(١) الوقفُ على آخر الآية الأولى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ وقفٌ تامٌّ من أن المعنى قد تمّ . وما بعده تفسيرٌ له . والوقف على المَجْمَل والابتداء بما يفسره وقفٌ تام . ويجوز أن تقف على آخر قوله تعالى : ﴿ أَبِي لَهَبٍ ﴾ وتستأنف التلاوة بقوله تعالى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ وإن كان هذا غيرَ معهودٍ ، فإنه جائزٌ عربيّةً ، ذلك أنّه من قبيل عطف جملة على جملة ، ويجوز في العربيّة أن تقف على آخر الجملة المعطوفِ ==

الجملتان اللتان استهلّت بهما هذه السُّورةُ جملتان خبريتان تنبّانُ نبياً حقّاً يقرّرُ وجهاً من وجوه إعجاز القرآن : يُعرفُ بوجه الإنباء بالغيبِ المستقبل ، وهو في القرآن كثير . وهذا الوجهُ من الوجوه المُحكّمة لإعجاز القرآن التي لا تحتُمَلُ تأويلاً ؛ لأنّها واقعٌ مشهودٌ ، بينما الإعجاز البلاغيّ يُمكنُ أن يُنازَعَ فيه ، بل نازعٌ فيه علماء مسلمون يؤمنون بأنّ القرآن كلمة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي أنزلها على عبده ونبّيه ورَسُولِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ^(١)

وهذه الآية هي أصلُ المعنى في السُّورةِ كلّها ، وما هو آتٍ من بعدها إنّ هو إلا تفصيلٌ ما أجمَلته هذه الآية ، ولو لم ينزل غيرها من آياتِ السُّورةِ معها لَكَفَتْ إجمالاً ، وكان يَمَلِكُ أولو البصائر أن يدركوا بعضاً من معالم التفصيلِ بالتبصّر والتدبّر ، فإنّ هذين : التَّبَصُّرَ والتدبُّرَ يُشَوِّرانِ المكنونَ في مُجملاتِ البيان .

فالسُّورةُ قائمة على أسلوبِ الإجمال والتفصيل . وهذا الأسلوبُ قريبُ العطاءِ وفيرُهُ حين يُرادُّ له أن يتحقّقَ له قُربُ الإدراكِ من جهةٍ ثمّ تمكّنه من أخرى .

== عليها إذا تم المعنى ، وتبدأ بالجملة المعطوفة ، ألا ترى أنّه يجوز أن تقول : « جاء محمدٌ » وتقف ، ثم تستأنف « وذهب خالد »

(١) من هؤلاء العلماء ابن سنان الخفاجيّ في كتابه : سرّ الفصاحة ، نفى إعجاز القرآن بلاغةً ، وقرر أنّ الإعجاز في صرفِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى العباد عن أن يأتوا بِمِثْلِهِ ، ولو خَلَّى بَيْنَهُمْ وبين ما كانوا عليه قبل نزوله من القدرة على البيان لجاءوا بِمِثْلِهِ .

أَمَّا قُرْبُ الإدْرَاكِ ، فَإِنَّ المَجْمَلَ أَقْرَبُ إدْرَاكًا مِنَ المَفْصَّلِ ، فَإِنَّ فِي التَّفْصِيلِ مَا قَدْ لَا يُطِيقُهُ كَثِيرٌ . فَاَلْمَجْمَلَاتُ أَسْرَعُ إدْرَاكًا ، وَأَيْسَرُ حِمْلًا ^(١) وَأَمَّا تَمَكُّنُهُ فَإِنَّ فِي التَّفْصِيلِ تَقْرِيرًا لِّلْمَعْنَى ، وَهُوَ بِمَثَابَةِ إِعَادَةِ مَا أَجْمَلَ ، مِمَّا يَجْعَلُ وَرُودَهُ عَلَى الْقَلْبِ مَكْرُورًا ، فَيَقَرُّ فِيهِ .

* * *

من معاني الهدى في نسق التفصيل على نسق الإجمال :

إِذَا مَا كَانَ الْإِنْبَاءُ إِجْمَالًا عَنْ هَلَاكِ مَا هُوَ رَمَزَ قُوَّتَهُ وَمَنْعَتَهُ جَاءَ مُتَقَدِّمًا يَرُدُّهُ الْإِنْبَاءُ بِهَلَكَتِهِ ، فَإِنَّ التَّفْصِيلَ كَذَلِكَ :

جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ٢) مَفْصَلًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ وَمُفَسَّرَهُ .

وَجَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد: ٣) مَفْصَلًا قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿ وَتَبَّ ﴾ وَمُفَسَّرَهُ .

لَمَّا كَانَتْ يَدَاهُ هُمَا أَدَاةُ كَسْبِهِ غَالِبًا ، فَالْيَدُ رَمَزُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْاِمْتِلَاكِ ، وَالْفِعْلُ ، أَنْبَأَ الْقُرْآنُ أَنَّ مَا أَنْتَجَتْهُ يَدَاهُ مِنَ الْمَالِ وَمِنَ الْكَسْبِ لَا يُغْنِي عَنْهُ شَيْئًا ، وَالْعَرَبُ لَا تَتَّخِذُ الْمَالَ لِدَاتِهِ ، وَلَا تَتَّخِذُ الْوَلَدَ لِدَاتِهِ ، وَإِنْ كَانَ فِي اقْتِنَاءِ كُلِّ لِدَاتِهِ مَا يَشْرَحُ غَيْرَ قَلِيلٍ مِنَ النَّفُوسِ ، لِأَنَّهُمَا زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، فَهَذَانِ : الْمَالُ وَالْوَلَدُ (كَسْبُهُ) فِي حَقِّ أَبِي لَهَبٍ وَحَفَدَتِهِ فِي كُلِّ عَصَرٍ وَمَصْرٍ لَنْ يُغْنِيَا عَنْهُمْ شَيْئًا .

(١) مِنْ هُنَا خُفَّ عَلَى النَّاشِئَةِ فِي بَاكِرِ طَلَبِ الْعِلْمِ حِفْظُ الْمُتَوْنِ الْعِلْمِيَّةِ ، وَأَنْتِ لَا تَكْدُ تَجِدُ عِلْمًا مِنْ عُلُومِ الْإِسْلَامِ وَعُلُومِ لُغَتِهِ إِلَّا وَفِيهِ مَتْنٌ ثَرِيٌّ أَوْ مَنْظُومٌ يُحْمَلُ صِغَارُ طُلَّابِ الْعِلْمِ إِلَى حِفْظِهِ ، وَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ سَنَةُ تَعْلِيمِيَّةٍ عَالِيَةٍ مِنْذُ عَقُودٍ مَضَتْ فِي مَعَاهِدِ الْأَزْهَرِ . وَهُوَ أَمْرٌ لَوْ عَادَ شَيْءٌ مِنْهُ لَكَانَ لَهُ مَا يَحَقِّقُ شَيْئًا مِنَ الْخَيْرِ الْمَفْقُودِ

قوله : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ (المسد: ٢) على وجه الإنباء الغيبي آية بينة قاهرة على أن القرآن من عند الله سبحانه وتعالى فإنه لا يجرو ذو أثاره من عقل أن يقطع على الغيب بمثل هذا من عند نفسه أو من عند من هو مثله بشراً أو مخلوقاً . فأنى له أن يأمن تخلف ما أخبر به . إنها ستكون حينئذ معرة الدهر .

لكن النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم أعلنها فيهم ، وملاً بها أسماعهم وقلوبهم ، فما جراً أحد أن يقول له : إن هذا لن يكون ، بل كان أبو لهب يتوجس خيفة من كل ما هدده به ابن أخيه سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم . ومن ثم حرص على ألا يخرج يوم بدر مع من خرج على عظيم عدائه للنبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وعلى شديد حقه على الإسلام وأهله ، واستأجر من يخرج مكانه وتلك لا يفعلها إلا ساقط الهمة ..

لو أن أبا لهب ومن حوله تبصروا حال النبي صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وهو يعلنها فيهم : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد: ١-٣) وهم يعلمون أنه ما جرت قط على لسانه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم كلمة كذب ، وما أنبأ قط بما لم يقع عين ما أنبأ ، وما خانهم ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في أمر قط ، لو أنهم فقهوا لعلموا أن من ورائه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم من يملأ قلبه يقيناً بما ينبي به .

هذه الآيات وحدها كفيلة بالآ تدع أحداً من قومه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم غير مؤمن به منافع عنه إن استمعت قلوبهم ما أعلنه فيهم من هذه الآيات .

ولكن الله سبحانه وتعالى قد أنبأ عن حالهم وحال حفدة منهمجهم من بعدهم إلى قيام الساعة : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ هُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ هِيَ وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ هِيَ وَهُمْ ءَاذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ هِيَ أُولَئِكَ كَلَّا نَتَعَمِّرُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ (الأعراف: ١٧٩) ^(١).

(١) هل لك إلى أن تتبصر في قوله تعالى جدّه : ﴿ أُولَئِكَ كَلَّا نَتَعَمِّرُ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ وقد استحضرتهم باسم الإشارة (أولئك) بين عينيك لتقوم مقام المشاهدة لما هو قائم فيهم ، وخارج منهم ، فتدرك أنّه وإن تعجبك أجسامهم فإنما هم كالأنعام ، وهنا يقيمك تتبصر ما يلتقون فيه مع تلك الأنعام ، فتدهش ، وأنت في دهشك هذا من تكاثر معالم الاتفاق بينهم وبين الأنعام ، يأتيك الإضراب بـ(بل) فإذا هو يصرفك إلى ما هو فوق الذي أدهشك قبل ، يقولها لك : ﴿ هُمْ أَضَلُّ ﴾ فيحملك بهذا التصاعد في كشف الواقع إلى أن تحسن التّبصّر في حالهم أكثر ، لتري أن الأنعام لو عرض عليها ما عرض عليهم ، ولو أنّها مُنحت ما منحوا من نعمة وسائل الإدراك ، لما كان من واحدٍ من تلك الأنعام ما كان من واحد من أولئك الذين تعجبك أجسامهم ، وتملأ مناظرهم الأعين . هكذا يتصاعد بك البيان القرآني حتى يتزع قلبك بحقيقة أولئك ، ثمّ يقولها لك لتعلم مبعث ما هم عليه . إنهم أضل من الأنعام إنهم هم مقياس الغفلة التي لا يدانيهم فيها مخلوق ، أولئك هم الغافلون .

كذلك يصوغ البيان القرآني الجملة صياغة تقطع بتفرّدهم في باب الغفلة . إنهم الأنموذج الأكمل للغفلة ، وفي هذا من التّفير البالغ من الاستسلام للغفلة ، ومن الحفز الفتيّ للتيقظ ، وللحضور العقليّ والنفسيّ والقلبيّ إزاء كلّ ما يجري من حولك .

بهذه الجملة : ﴿ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ يقضي البيان القرآني في أمر الغفلة ، وخطرها ، وأن صاحبها بمقدار ما يحوز منها بمقدار ما يكون دخوله في ==

صيغ قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ ﴾ (المسد: ٢) على نهج
المضيّ ، فـ(ما) في قوله تعالى : ﴿ مَا أَغْنَىٰ ۖ ﴾ (المسد: ٢) نافية ما بعدها^(١)

==عالم الأنعام . إن مفتاح الولوج في هذا العالم هو الغفلة .

إنّ الإبلاغ في التنفير منها ، وفي التحفيز إلى التيقّظ ، وإلى أخذ الحذر والنفرة من
كلّ ما يُقارب من عالم الأنعام .

وجاء قوله ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۖ ﴾ غير معطوف بـ(الواو) على قوله تعالى جَدُّهُ
﴿ أُولَٰئِكَ كَآلَا نَعْمٍ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۖ ﴾ لفتًا إلى أمرين :

الأمر الأول : إلى ما بين مضمون كلّ من تلاق ، وهو أمرٌ يحسّن تقريره في
النفوس ، وفي إبراز معنى التلاقي بترك العطفِ عونٌ على ذلك ، لأنّ ترك العطف
يلفت إلى مقصديّة التقرير والتأكيد والتأطيد ، فيعلم السّامع أهمية تقرير ذلك في
نفسه ، فيحرص عليه .

وهذا من سنة البيان القرآنيّ في لفت الانتباه إلى ما يريد الانتباه له لأهميته
للسّامع .

والأمر الآخر : هو لفت الانتباه إلى ما في قوله سبحانه وتعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ هُمُ
الْغَافِلُونَ ۖ ﴾ من إشارة إلى مبعث ما هم فيه من مشابهة للأنعام بل ما هم فيه من
تفوق عليها إنّما هو الغفلة .

(١) يذهب بعض أهل العلم إلى أنّه يُمكن أن تكون (ما) استفهامية ، بمعنى أي غناء
أغناه عنه ماله وما كسبه ؟ فهو استفهام إنكاريّ يفيدُ النفي ، والاستفهام الإنكاري
ماله كما ترى إلى الخبر ، ولكن جاء البيان عن النفي بالاستفهام الإنكاري ، حملا
للسّامع إلى أن يتبصّر ، وأن يراجع ويبحث ويفتّش في الأمر ليجد جواباً عن ذلك
الاستفهام ، فلا ينتهي به طول بحثه وتفتيشه إلا إلى أن يعلن أنّه لم يغن عنه
ماله ولا ما كسب شيئاً ، فيكون هذا إقراراً اعترافياً ، وهو أقوى سبل الإثبات فيسدّ
طريق الاعتراض والتوقف في التسليم بهذه الحقيقة ..

ولا يستقيم أن تكون (ما) في قوله (ماله) موصولةً صلتها (له) على معنى :
ما أغنى عنه الذي له ، لأنّ القراءة بالرفع (ماله) فهو فاعل (أغنى) ولم تأتِ قراءة
بجعل (ما) فاعلاً للفعل (أغنى) فيكون (اللام) في (له) مفتوحاً .
==

بينما صيغ قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد: ٣) على نهج الاستقبال ، وكان يمكن أن يُقال في غير القرآن : لن يُغني عنه ماله وما كسب ، فيكون على نهج ما بعده ، أو يجعل ما بعده على نهجه ، فيقع التناظر والتشاكل في الصيغة ، لكنّ البيان القرآني عدل فجعل ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ٢) على نهج الماضي لأنّ هذا متحقّق في الدنيا ، وواقع بين أعين الملاء ، فلا سبيل إلى إنكاره ، فلم يغن عنه ماله شيئاً ، ولم ينفعه كسبه البتّة ، ومن كسبه ولده^(١) ومن يقرأ أحداث موته ، وما فعل أولاده به ، وكيف أنهم تحاشوا الاقتراب منه أو العمل على دفنه ، لعلم أنّ ولده لم يغن عنه حتى في مواراته التراب بعد موته ، وهو أدنى ما يصنع

=ولو جاءت قراءة بهذا لكان قوله (ما كَسَبَ) داخلا فيه ، فإن ما كسب هو له أيضاً ، ويكون من عطف الخاص على العام . فإنّ الذي له يعمّ ما كَسَبَهُ بنفسه ، وما لم يكسبه بنفسه من ميراث وغيره ، ولكنّ ما كَسَبَ لا يكون إلّا لما عمِل على كسبه ، وكان له في تحصيله يد .

وهذا يبين لك أنّه ليس كلّ ما أمكنَ عربيّةً جازتُ القراءةُ به ؛ لأنّ القراءة توقيفٌ لا دخل لأحد من العالمين فيها . بينما تأويلُ القراءة وتوجيهها اجتهادٌ وفق أصول و ضوابط متعيّنة حرصت على تقرير أنّ القراءات القرآنية توقيف من الوحي دفعاً لما يذهب إليه بعض المحدثين إلى أنّه يصح أن نقرأ القرآن باللهجات العربية ، فيقرأ كل عربي بلهجته وهذا خطأ فاحش .

(١) ذهب بعض أهل العلم إلى أنّ المعنى ما أغنى عنه ماله وما كسب في الآخرة ، فلا يقيه ماله وولده نار جهنم . وهذا عندي غيرٌ عليّ ، لأنّ غيره من العصاة والطغاة والفجرة والكفرة لن يغني عنهم مالهم وما كسبوا يوم القيامة . ﴿ كُن تَنفَعَكُمُ أَزْحَامُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ ۖ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (المتحنة: ٣)

﴿ وَمَا أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَدُهُمْ بِالْأَيْ تَقْرِبَتِكُمْ عِنْدَنَا ذُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ هُمْ جَزَاءُ الضُّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴾ (سبأ: ٣٧)

الولد لأبيه^(١) . ومن فضل الله تعالى أن بعضاً من ولد أبي لهب أسلموا ، وحسن إسلامهم^(٢) وهم بذلك يتعبدون ربهم بقراءة هذه السورة ، فانظر كيف أن الإسلام يحيل ولاء المرء من قبيلته وأسرته ورحمه إلى أن يكون ولاؤه لله تعالى وحده ، فهؤلاء ولد أبي لهب يتعبدون بما جاء في شأن أبيهم ، وهذا أبو سفيان وولده رضي الله عنهما يتعبدون بذلك ، وهذا خالد بن الوليد رضي الله عنه يتعبد بقراءة سورة (القلم) .

إنّ هذا لآية جليّة الدلالة ، فتية البرهان على أن الإسلام هو الحق ، فكيف يتعبد رجل بما جاء في حق أبويه من تقرير أنهما في النار خالدين أبداً إلا إذا كان على يقين قطعي أن هذا هو الحق المبين ، كذلك يفعل الإسلام في الرجال ، يجعل ولاءهم لدينهم ، وليس لغيره قبيلة أو وطن أو حزباً

(١) ينظر في هذا : الروض الأنف ١٢١/٥ ، ١٢٢

(٢) ينظر في هذا : سبل الهدى والرشاد ، في سيرة خير العباد ، لمحمد بن يوسف الصالحى الشامي (ت : ٩٤٢هـ) تحقيق عادل أحمد عبد الموجود ، وعلي محمد معوض ، ط ١ . سنة ١٤١٤هـ ، دار الكتب العلمية بيروت ، ١١/١٤٠ ، ١٤١ . وما جاء به بعض أهل العلم أن قوله ﴿ سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ (المسد: ٣) خبر عن ﴿ وَمَا كَسَبَ ﴾ (المسد: ٢) وأن المعنى ما كسب سيصلى ناراً ذات لهب ، أي ولده سيصلى ... هو وجه بعيد جداً . رأيت في كتاب : معاني القرآن وإعرابه ، تأليف أبي إسحاق الزجاج (ت : ٣١١هـ) تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي ، ط ١ . ١٤٠٨هـ ، عالم الكتب - بيروت . ٣٧٥/٥ يقول : « (سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ ، أي : وولده سيصلى ناراً ذات لهب . ويقرأ : (سَيَصْلَى نَاراً).

وأخشى أن يكون هذا من غفلات المحقق أو ناسخ المخطوطة . ذلك أن الزجاج قال بعد ذلك « ويقرأ (حَمَالَةُ الْحَطَبِ) - بالنصب - وامراته رفع من وجهين : أحدهما العطف على ما في « سَيَصْلَى » ، المعنى سيصلى هو وامراته ويكون (حَمَالَةُ الْحَطَبِ) نعتاً لها . فالقول بأن (سيصلى) خبر عن (ما كسب) بعيد فإن أكثر ولد أبي لهب قد دخل في الإسلام . وحسن إسلامه .

أو قومية أو نحو ذلك فشعارهم دائماً «الإسلام أولاً وآخرًا» و«الإسلام كلُّ شيءٍ»، ومن رفع غير ذلك، فقد قارب أن يقع فيما لا تُحمدُ عقباه عقيدةً، فليحذر الذين آمنوا أن تتخطفهم أهواؤهم وشهواتهم وشبهاتهم وجهالاتهم وضلالاتهم؟^(١)

* * *

ويأتي قوله تعالى ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: ٣) تفصيلاً لقوله (وتب) من جهة، ومن أخرى يُمكن أن تجعله كالنتيجة لقوله ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ (المسد: ٢) ذلك أنه إذا كان عدم الإغناء هذا هو مصيره في الدنيا، فإن مصيره في الآخرة أعتى .

ولك أن تجعله استئنافاً بيانياً عن الجملة التي قبله، كأنه قيل: هذا جزاؤه في الدنيا، فما جزاؤه في الآخرة؟ فقيل: ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ والوجهان يمثلان طريقاً من طرق الوصل بين المعاني وصلًا جوائياً، يُستغنى فيه من قوته عن عامل لفظي يحقق التواصل . وهذا ما يسميه البلاغيون الفصل لكمال الاتصال وشبهه، فيجعلون ترك العطف بالواو للاستغناء عن عامل وصل خارجي فصلاً لفظياً ووصلاً معنوياً .

(١) الوقفُ على قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ وقف تام، وهو من السنة لأنه وقف على رأس الآية .

أمّا الوقفُ على ﴿مَالُهُ﴾ واستئناف التلاوة ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ فغير حسن إن جعلنا قوله تعالى ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ معطوفاً على فاعل ﴿مَا أَغْنَىٰ﴾ فليس حسن أن تقول: «جاء مُحَمَّدٌ» . وتقف، ثم تبدأ: «وخالدٌ» إلا على تقدير وخالدٌ كذلك .

وعلى هذا التأويل يمكن أن تقف على ﴿مَالُهُ﴾ ثم تستأنف ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ على أن ﴿مَا﴾ في ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ مبتدأٌ محذوف الخبر، تقديره «وما كسب كذلك» فيكون من عطف جملة اسميةً مثبتةً على جملةٍ فعليةٍ منفيةٍ، وهو سائغٌ شائعٌ في العربية .

والسين في (سيصلى) هي إلى الإبانة عن توقيت الفعل أقرب منها إلى تأكيد وقوعه ، ذلك أن المفسر ﴿وَتَبَّ﴾ جرد من التوكيد لاستغنائه عنه ، فلا يكون ما يفسره مفتقراً إليه ، فـ(السين) بيان أن ما بعدها هو جزاؤه في مصيره ، وأن ما قبله بيان جزائه في مسيره . فإذا ما كانت الجملة الأولى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ جردت من التوكيد ، وما يفسرها ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ كذلك جرد من التوكيد ، كذلك الأمر في الجملة الثانية (تب) وما يفسرها ﴿سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ (المسد: ٣) ^(١)

وقوله : ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ من الصلي . وهو الشئ ، تقول العرب : صلى اللحم وغيره يصله صلياً : بالتخفيف ، على وجه الصلاح معناه شويته ، فأما أصليته وصلته فعلى وجه الفساد والإحراق ؛ ومنه قوله : فسوف نصليه ناراً ، وقوله : ويصلى سعيراً .

* * *

(١) ما ذهب إليه من أن (السين) في ﴿سَيَصْلَىٰ﴾ أقرب إلى بيان أن ما بعدها واقع في المستقبل ، وأنها لم تأت لتوكيد الوقوع مخالفاً بهذا ما عليه جمهرة أهل العلم . الذي حملني إلى ما ذهب إليه ملاحظة الاتساق في منهج الإبانة في الجملتين الأوليين وما يفسرهما ، وإلا كنا بحاجة بالغة إلى بيان ما اقتضي توكيد مفسر الجملة الثانية ، دون ما تفسره ، ودون الجملة الأولى وما يفسرها ، وليس عندي ما يبين لي عن ذلك المقتضي ، ولم أجد أحداً من أهل العلم الذين قالوا إن (السين) هنا للتوكيد أبان عما قلت من وجوب الإبانة إذا قلنا إن السين للتوكيد . بسطت لك القول في بيان النهج الذي سلكته وما حملني عليه لتكون على ذكر من وجوب أن يكون مذهبك في التأويل له ما يحمل عليه ، وله مسوغه الموضوعي فإن الذهاب بغير ما يحمل عليه ليس من شأن أهل العلم وطلبتة .

وفي تنكير المفعول الثاني لهذا الفعل ﴿نَارًا﴾ من التهويل ما تنخلع له القلوب أي سيصلى ناراً عظيمة ذات لهب متوقد لا يخبو . ولذا جاء نعت النار بقوله تعالى ﴿ذَاتُ هَبٍ﴾ وكان يمكن أن يقال في غير القرآن ﴿سَيَصْلَى نَارًا﴾ فقوله تعالى : ﴿ذَاتُ هَبٍ﴾ للدلالة على أنها نارٌ تتوقد ، وتزداد تلهباً واستمراراً في الصلي .

وهذا متأخ مع قول الله تعالى في سورة الهمزة : ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ قوله : ﴿الْمُوقَدَةُ﴾ أي التي لا يخبو اتقادها ، فهم في عذاب أليم متنوع مستمر ، لا سبيل إلى أن يعتاده الإنسان .

وفي قوله ﴿ذَاتُ هَبٍ﴾ (المسد: ٣) إشارة إلى أنها لهبٌ خالصٌ لا دخان فيه ، من شدة توقده ، فإن النار إذا اشتد توقدها صفت لا يخالطها دخان .

وفي قوله ﴿ذَاتُ هَبٍ﴾ أيضاً نظر إلى كنيته ﴿أَبَى لَهَبٍ﴾ تشاكل جزاؤه مع كنيته التي كان يكرم بها لوضاعة بشرة وجهه وصفائها كما يذهب إليه جمع من أهل العلم . وقرأ الجمهور بفتح ياء المضارعة من ﴿سَيَصْلَى﴾ وفي رواية أبي صالح البرجمي عن أبي بكر بن عبيّاش بضم الياء ﴿سَيَصْلَى﴾ على البناء لغير الفاعل مع تخفيف عين الكلمة ، ومنهم من قرأه مع تشديده (سَيُصْلَى)^(١).

(١) المبسوط في القراءات العشر ، لأبي بكر بن مهران (ت : ٣٨١هـ) تحقيق : سبيع حاكمي . نشر : مجمع اللغة العربية - دمشق . ١٩٨١ م . ص ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، والكامل في القراءات ، لأبي القاسم الهذلي (ت : ٤٦٥هـ) . تحقيق : جمال الشايب . ط . ١ ، ١٤٢٨هـ مؤسسة سما للتوزيع والنشر . ص ٦٦٣

وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين الدميّطي (ت : ١١١٧هـ) . تحقيق : أنس مهرة . ط ٣ ، ٢٠٠٦هـ . دار الكتب العلمية -

لبنان . ص ٦٠٦

في قراءة الجمهور بالفتح (سَيَصَلَّى) التي يُسندُ فيها الفعلُ إلى ضميرِ (أبي لهب) على الفاعلية دلالةٌ على أَنَّ هذا الفعلَ حتمٌ لا مفرَّ منه ، وأنَّه الَّذي يقعُ عليه الفعلُ كأنَّه هو الَّذي يقعُ منه الفعلُ ، لا اختيارَ له في ذلك ، على نحو ما تراه في « مات فلانٌ ، وتفتحَ الزَّهرُ وطابَ الثَّمَرُ ، وانكسرَ الزُّجاجُ وهبَّتِ الرِّيحُ ، وطلعتِ الشمسُ ... » فما أسندَ إليه الفعلُ في كلِّ هو في الحقيقة قد وقعَ عليه الفعلُ من فاعلٍ ، ولكنَّ أسندَ إليه على الفاعلية اللغوية لا المعنوية آية على أَنَّ الفعلَ حتمٌ ، وأنَّ ما يقعُ عليه الفعلُ لا أثرَ له فيه ، ولن يمتنعَ منه ، فهو مسيرٌ لا مخيرٌ .

وفي هذا من التهديد ما فيه . وفيه أيضاً من البُشرى لرسولِ الله صَلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلَّم ، والذين معه ما فيه .

وقراءة ضَمَّ (ياء) المضارعة من (سَيَصَلَّى) دلالةٌ على أَنَّ فاعلَ هذا به معلومٌ ، لا يكونُ من أحدٍ سواه ، فهو وحده القادرُ على ذلك ، فظهورُ اختصاصِهِ به اقتضى طيَّ التصريح بذكره ، فكان تركُ التصريح بذكره أدلَّ على المُرادِ مِن ذكره ، وتلك من بلاغة الطيِّ . وفيه من جلالِ الألوهية ما يملأ القلبَ خشيةً .

وهذا فيه من الإشارة إلى توحيدِ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَأَنَّهُ إذا لم يكن هناك سواه يُمكن أن يصدرَ عنه ذلك الفعلُ ، فهذا آيةٌ على أَنَّ كلَّ من سِواه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا يصلحُ أن يكونَ إلهاً من دون الله تعالى أو إلهاً معه ^(١) .

* * *

(١) الوقف على (ذات لهب) وقفٌ تامٌ ، إذا ما جعلنا قوله تعالى ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ (المسد: ٤)

والوقف على رؤوس الآي سنة متبعة .

والبيانُ القرآنيُّ عني بتصريفِ البيانِ عن النارِ وأهلها ، دفعاً للعبادِ عن مقارَبةِ ما يفضي إليها ، وإغراءً بما يباعدُهم عنها

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ فَمَنْ زُحِرَ حَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۖ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَّعٌ الْغُرُورِ ۝﴾

(آل عمران: ١٨٥)

فالتَّخْوِيفُ مِنَ النَّارِ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ لَا يَحْمِلُ قَطُّ عَلَى الْيَأْسِ وَالْقَنُوطِ ، وَلَا عَلَى التَّقَوُّعِ وَالبُعْدِ عَنْ تَعْمِيرِ الْحَيَاةِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ ، وَلَا عَلَى الزُّهْدِ السَّلْبِيِّ ، بَلْ إِنَّ هَذَا التَّخْوِيفَ يَدْفَعُ إِلَى إِتْقَانِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمَصْلُوحِ ، وَالْإِخْلَاصِ فِيهِ لِلَّهِ تَعَالَى ، وَعَلَى التَّسَامُحِ وَالصَّفْحِ وَالْإِثَارِ وَعَلَى كُلِّ مَكْرَمَةٍ أَخْلَاقِيَّةٍ إِيمَانًا وَاحْتِسَابًا ، فَلَا تَجِدُ مِنَ الْخَائِفِ مِنَ النَّارِ إِلَّا مَا يَمْلَأُ قَلْبَكَ طُمَأْنِينَةً إِزَاءَهُ ، فَلَا تَتَوَجَّسُّ مِنْهُ خِيفَةً ، لِأَنَّهُ يَخَافُ أَنْ تَكُونَ النَّارُ مِثْلَهُ .

﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝﴾ (النازعات: ٤٠، ٤١)

مَا يَذْهَبُ إِلَيْهِ الَّذِينَ يَصْدُدُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ تَعَالَى مِتَاجِرَةً بِالدُّنْيَا مِنْ أَنَّ حَدِيثَ الْعُلَمَاءِ وَالدُّعَاةِ عَنِ النَّارِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ يَمْلَأُ قُلُوبَ النَّاسِ يَأْسًا وَرَغْبَةً فِي الْإِنْكَفَاءِ عَلَى النَّفْسِ وَبَعْدًا عَنْ تَعْمِيرِ الْحَيَاةِ ، وَعَنِ التَّقَدُّمِ الْعِلْمِيِّ ، وَعَنِ الْمُنَافَسَةِ فِي تَحْقِيقِ الْحَضَارَةِ الْإِنْسَانِيَةِ الرَّاقِيَةِ لِلْمُسْلِمِينَ لَا يَخْلُو مِنْ أَحَدٍ أَمْرَيْنِ :

إِمَّا أَنَّهُ مَذْهَبٌ حَمَلَهُمْ عَلَيْهِ جَهْلٌ أَحْمَقٌ اسْتَعَذَّبُوهُ فَأَبَوْا عِلَاجَهُ

وَإِمَّا أَنَّهُ مَكْرٌ أَخْرَقَ مَرَدُّوْا عَلَيْهِ وَدَبَّرُوا لَهُ بَلِيلٌ بِهِيم .

إِنَّ مَخَافَةَ الْمُسْلِمِ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَامِلٌ مِنْ عَوَامِلِ الْإِحْسَانِ فِي كُلِّ شَيْءٍ ، وَعَامِلٌ مِنْ عَوَامِلِ تَعْمِيرِ هَذِهِ الْحَيَاةِ بِكُلِّ مَا هُوَ نَافِعٌ . وَأَنَّ الدُّنْيَا عِنْدَهُ

مزرعة الآخرة ، والعناية بها من عنايتهم بأخراهم . وما تخلف المسلمون عن ريادة الدنيا وأهلها إلا حين خلعوا الخوف من الله تعالى من قلوبهم ، وسقطوا في مستنقع « الإرجاء » الذي يريد أعداء الأمة أن تبقي فيه غارقة .

ألا يسمع أولئك الجاهلون أو الماكرون ما رواه الترمذي في كتاب (الزهد) من جامعه بسنده عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه أن رجلاً قال يا رسول الله أي الناس خير قال « من طال عمره وحسن عمله » . قال فأى الناس شر قال « من طال عمره وساء عمله » . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

ورواه أحمد من حديث أبي بكرة ، ومن حديث عبد الله بن بسر . هذا النبأ النبوي هادٍ إلى أن الخيرة في من عمل صالحاً في عمرٍ مديدٍ ، ولا يكون العمل صالحاً إلا إذا كان نافعاً ومصلحاً ، وأساس العمل الصالح في الإسلام ثلاث : الإخلاص - الاتباع - الإتيان :

- الإخلاص بصفاء القصد وطهر النية (الاحتساب لوجه الله تعالى)
- الاتباع بالالتزام بهدي شريعة الكتاب والسنة ، فلا يَحِيدُ عنها في صنعه البتة .

- الإتيان بامتلاك مهارات الجودة وأدوات الإجابة ، وحسن توظيف ذلك .

وهذه الثلاثة (الإتيان) داخلة في الثانية (الاتباع) فمن اتبع الشريعة إتقان العمل^(١)

(١) عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم قال : « إن الله يحبُّ إذا عَمِلَ أَحَدُكُمْ عَمَلًا أَنْ يَتَّقِنَهُ »
رواه الطبراني في المعجم الأوسط (حديث رقم : ٨٩٧) وفي الجامع الصغير وزياداته . حديث رقم (٢٧٦١) وحسن الألباني في صحيح الجامع الصغير ==

وإنما أفردته بالذكر من قبيل ذكر الخاصّ بعد العام ، إبرازاً لوجوب مزيد الاعتناء به في عصرنا ومصرنا ، فقد بات الإتقان فريضة غائبة عند كثير وغائمة عند من بقي .

هذه الثلاثة هي عمودُ عملِ المسلم الذي يخاف ربّه سبحانه وتعالى ، ويخافُ ناراً ذاتَ لهبٍ أعدّها الله تعالى لأبي لهبٍ ولأحفاده .

* * *

=زياداته . حديث رقم (١٨٨٠) ٣٨٣/١ ، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها ، ط . ١ ، نشر مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، الرياض .
حديث رقم (١١١٣) ١٠٦/٣

وإتقان العمل على الوجه الذي يحبه الله - سبحانه وتعالى - لا يكون إلا إذا كان صاحبه عليمًا به وبما يستوجبه من مهارةٍ وأدواتٍ ، وكان مليكًا لتلك المهارات والأدوات ، مقتدرًا على الوفاء بحق ذلك . فمن تولى عملا ليس له بأهل فإنه يفسده ، فيشيع الفساد في الأرض . والله تعالى نهى كثيراً في كتابه عن الإفساد في الأرض

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ﴾ (الأعراف: ٥٦)

﴿ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾
(الأعراف: ٨٥)

﴿ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (المائدة: ٦٤)

﴿ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (الأعراف: ١٤٢)

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴾ (يونس: ٨١)

﴿ وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَتَّبِعِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ
الْمُفْسِدِينَ ﴾ (القصص: ٧٧)

﴿ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴾ (البقرة: ٢٠٥)

معاني الهدى في الآيتين في شأن امرأة أبي لهب :

لما أبان عن حال أبي لهب في مسيره ومصيره بياناً معجزاً بما حمله من إنباء بغيب وبمعناه ومبناه أبان عن حال امرأته التي كانت عضده ووزيره ومحرضه على الإفساد في الأرض ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝۵ ﴾ (المسد: ٤، ٥) فهذه الآيات تبين لنا عن أثرها عليه ، وأن لها اليد الطولى في ضلاله وتبه .

وأنت إذا ما أبصرت حالها معه واستحضرت حال سيدتنا خديجة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تبين لك عظيم الفرق بينهما .

وجعل الله تعالى صنيع امرأة لأبي لهب قرآناً يتلى ويتعبد به بينما لم يذكر صنيع سيدتنا خديجة رضي الله عنها مع زوجها رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم وترك أمره لبيان السنة النبوية لفتاً إلى فداحة ما صنعتها امرأة أبي لهب . وأن هذا ليس من شأن المرأة أن تصنع البتة مع رجلها ، فكان جديراً بأن يجعل حاضراً في لسان كل مسلم وسمعه وقلبه ليتخذ له حجازاً منيعاً من مقارنة تلك الحال المبيرة .

استهلّ البيان عنها بقوله (امراته) دون قوله (زوجه) لفتاً إلى أنهما وإن تكاملا ، فإن تكاملهما كان في الشر ، فلا اعتداد به ، والزوجية الأصل فيها التّكامل في الخير ، فكل من كانت صاحبته غير متكاملة معه ، فهي امرأته ، أو كانت متكاملة معه في غير الخير ، فهي امرأته أيضاً ، وليست بزوجه ؛ لأن معنى الزوجية في العرف اللغوي غير متحقق هنا . فالزوج هو الفرد الذي يتكامل وظيفة مع مثيله . والاعتداد هنا بالتكامل في الخير لا في الشر .

ومن ثم كان من السنة البيانية في القرآن البيان بالزوج حين يكونا مؤمنين:

﴿ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوْصِيْنَ بِهَا أَوْ دِينَ ﴾

(النساء: ١٢)

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (التوبة: ٢٤)

﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ (الرعد: ٢٣)

﴿ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ (المؤمنون: ٦)

﴿ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّلٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكُونٍ ﴾ (يس: ٥٦)

﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ ءَابَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ۖ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (غافر: ٨)

فإن قيل إنه قد جاء في قوله تعالى : ﴿ أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴾ (الصافات: ٢٢) البيان هنا بالأزواج ، والحديث عن الذين ظلموا .

قلت : لا يراد بقوله : ﴿ وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ هنا النساء ، بل يراد أشباههم في الفعل من الذكران والنساء ، وهذا ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما .

قال : « قال أشباههم » فهو يناظرُ قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (التكوير: ٧) أي قرنت بما يُشاكلها وجاء من قبله عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(١)

فإن قلت قد جاء البيان عن صاحبة سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام بامرأته دون زوجها ، وهي مثيلُهُ في الخير ومتكاملةٌ معه في هذا الباب : ﴿ وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَلَبَسَ رَتَلَهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴾ (هود: ٧١)

قلت : كانت على نهجه السلوكيَّ غير أنّها كانت عقيما ، فلم تكن كاملة الزّوجيّة .

(١) عَنِ الثُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، قَالَ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَقُولُ : فِي قَوْلِهِ : ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصفات: ٢٢) قَالَ : « الصَّالِحُ مَعَ الصَّالِحِ ، وَالطَّالِحُ مَعَ الطَّالِحِ »
وعنه ، يَقُولُ : سَمِعْتُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، يَقُولُ : « مَا تَقُولُونَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ (التكوير: ٧) ، فَسَكْتُوا ، فَقَالَ عُمَرُ : « وَلَكِنِّي أَعْرِفُهُ ، هُوَ الرَّجُلُ يُزَوِّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ ، وَالرَّجُلُ يُزَوِّجُ نَظِيرَهُ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » ، ثُمَّ قَالَ [أَي قَرَأَ] : ﴿ أَحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ (الصفات: ٢٢)
وَعَنْ مُجَاهِدٍ ، قَالَ : « يَقُولُ : يُزَوِّجُ الْأَمْثَالَ الْأَشْبَاهَ مِنَ النَّاسِ يَجْمَعُ بَيْنَهُمْ »

تفسير سفيان الثوري ، ط . ١ ، ١٤٠٣ هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ص ٢٥٢
وتفسير مجاهد بن جبر المخزومي ، تحقيق : محمد عبد السلام أبو النيل ، ط . ١ ، ١٤١٠ هـ ، دار الفكر الإسلامي الحديثة ، مصر ، ص ٥٦٧ ، ٧٠٧
وتفسير يحيى بن سلام التيمي (ت : ٢٠٠ هـ) تحقيق : هند شليبي ، ط . ١ ، ١٤٢٥ هـ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٨٢٧/٢
وتفسير الطبري ، تحقيق أحمد شاكر ، ط . ١ ، ١٤٢٠ هـ ، مؤسسة الرسالة ٢١/٢٧

وذهب السهيلي إلى وجه آخر جواد :

قال : ذكر المرأة أليق هنا لأنه جاء في سياق ذكر الحمل والولادة ،
فذكر المرأة أولى به « لَأَنَّ الصَّفَّةَ الَّتِي هِيَ الْأُنُوَّةُ هِيَ الْمُقْتَضِيَةُ لِلْحَمْلِ
وَالْوَضْعِ لَا مِنْ حَيْثُ كَانَ زَوْجًا ^(١) » .

فالبيان بالزَّوجِيَّة وإن كان في أصله قويمًا في حقها إلا أن السياق لفت
إلى معنى يقتضيه القصد ، وهو الحمل والولادة وهو معنى يستحضره لفظُ
« المرأة » فالتفت إليه .

وقد يقال : لم جاء البيان عن صاحبة سيدنا زكريا عليه الصَّلَاةُ والسَّلَامُ
بالزَّوجِيَّة : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَاهُ زَوْجَهُ ^ع إِنَّهُمْ
كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا
خَاشِعِينَ ﴾ (الأنبياء: ٩٠) وهي عقيم؟

قلت : لمصاحبة قوله تعالى ﴿ وَأَصْلَحْنَاهُ ﴾ فلما أصلحها مما هو بها من
العقم كانت أحق بأن يكون البيان عنها بالزَّوجِيَّة .

وجاء البيان عن صاحبة سيدنا نوح وسيدنا لوط عليهما وعلى نبينا الصَّلَاةُ
والسَّلَامُ بالمرأة : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحَ وَامْرَأَتَ لُوطَ ^ع
كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَاتَّمَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ (التحریم: ١٠) لأنهما كانتا كافرتين ،
فليست كلٌّ على نهج صاحبها ، فلا تكامل بين كلٍّ وصاحبه في الخير :
رجلها على هدى وداعٍ إليه ، وهي في ضلالٍ مبين .

(١) الرُّوضُ الْأَنْفُ لِلْسَّهِيلِيِّ تحقيق : عمر السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ،
ط . ١ ، ١٤٢١ هـ ، (م.س) ١٨٦/٣

وجاء البيان عن صاحبة العزيز بامرأته دون زوجها : ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي
الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْلَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۗ إِنَّا لَنَرُلَهَا فِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ (يوسف: ٣٠)

﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ۚ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا
عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ۗ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكُنْ حَصْحَصَ الْحَقِّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ
نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (يوسف: ٥١) لأنها لم تكن على ما تكون
عليه الزوج مع زوجها: حافظة بالغيب .

وجاء البيان عن صاحبة فرعون عليه من الله ما يستحق بامرأته دون
زوجه : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ
لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنَ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴾ (التحریم: ١١) لأنها كانت على الحق ، وكان هو في الباطل ،
فلا اتفاق ولا تكامل في خير . فما هي بزوجه .

وهذا يهدينا إلى أن الزوجية الحقة هي التي تحقق الوظيفة التي كان لها
تأسس الأسرة ، فليس الزواج في الإسلام لقضاء شهوة بما أحل الله تعالى
فحسب وإن كان هذا في نفسه أمراً جليلاً ، بل من وراء ذلك ما هو جليل
مثله أو أعظم منه : من وراء ذلك تعاون وتكامل في صناعة الخير ، ونشره ،
ونصرته بالحق وتسبب في نتاج من يعمل للإسلام ونشره وينصره من البنات
والبنين .

وكل أسرة لا يتعاون فيها الصَّاحبان على هذا ، فما هما بزوجين ، وإن
تصاحبا مكانا وزماناً وإن توافقا في صناعة ما ليس بخير ، وبهذا يبين لنا
القرآن الكريم باصطفاء الكلمة عن وظيفة البيت المسلم :

﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالَّذِينَ حَسِبْتَ قَلِيلًا حَفِظْتُ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ...﴾

(النساء: ٣٤)

وهذا يُبين مسؤولية السَّامع والقارئ للقرآن إزاء الكلمة القرآنية وما فوقها بالسَّعي إلى حسن تلقيها والتبصُّر في منهاج دلالتها وغايات الإبانة بها ، والمقاصد التي يُراد تحقيقها بها . إن الأمر جدُّ عظيم ، والتَّشَاغُلُ عن هذا قد يلقي بالمرء في دائرة هجران القرآن : ﴿ وَقَالَ الرَّسُولُ يُرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴾ (الفرقان: ٣٠) وما هو بهجر تلاوة ، فحسب بل أيضاً هجر تدبُّر وتبصُّر ، وهجر تأدب وتحكيم في حركة الحياة كلها .

* * *

من معاني الهدى في (الواو) في قوله ﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾ :

الواو في ﴿وَأَمْرَاتُهُ﴾ لها أحد وجهين :

الأوّل أنها عاطفة عطفت «امراته» على الضمير في (سيصلى) فيكون المعنى : سيصلى هو وامراته . وعطفها عليه آية على أنها شاركته في مسيره وما كان من أفاعيله ، فشاركته في مصيره .

وهذا يهدينا إلى أمرٍ مهمٍّ جدًّا في حياة امرأة كلِّ رجل :

إنها شريكه في كلِّ ما هو آتٍ من خيرٍ ومن شرٍّ ، فوجبَ عليها أن ترقبَ أمره ، وحركته في الحياة ، وأن لا تدعه يفعل ما يشاء ، بل هي سائلته عن جميع أمره ، لتطمئنَّ إلى أنه على صراطٍ سويٍّ ، ووجبَ عليها أن تكونَ عونًا له على الخير ، وأن لا تحمله على أن يسلك مسالك الهلكة . وليس صواباً أنها غيرُ مسؤولةٍ عن حال ما يطعمها ويسقيها وما يُنفقُ عليها أجا به من طريقه أم من غيره . كلا عليها أن تستوثقَ أنه لا يأتيها برزقها ممّا

لا يُرضي الله تعالى ، فالمرأة راعيةٌ في بيتها ومسؤولةٌ عن رعيّتها . وهذا فيه من تكريم المرأة ما فيه . إنها مُكوّنٌ أساسيٌّ من مُكوّناتِ الأسرة ، وعمودٌ من أعمدته ومركزُ رقابي محاسبيّ قويم .

أو أنّ (الواو) عطفُ « امرأته » وما بعدها على أوّل الجملة ، فيكون من عطفِ القصّة على القصّة :

عطفَ قصّةِ امرأته على قصّته ، فيكون قوله تعالى ﴿ وَأَمْرَاتُهُ ﴾ مرفوعاً على الابتداء ، ويكون خبره « حمالة الحطب » ، على قراءة رفع ﴿ حَمَالَةٌ ﴾ ، أو ﴿ فِي جِيدِهَا ﴾ . . . على قراءة نصب ﴿ حَمَالَةٌ ﴾ . وحينئذٍ يكون الوقف على (ذات لهب) تاماً .

ويحسنُ في الوقفِ التام أن يتلبّث القارئ ؛ ليشعرَ بتلبّثه السامعُ بتمام المعنى ، وأنّه منتقلٌ بعدُ إلى معنى آخر هو أخ لسابقه وخدينه .

وهذا الوجه من عطف القصّة على القصّة يُفهم منه أنّها كانت رأساً في هذا الصّدّ عن سبيل الله تعالى ، وإنّها لم تفعلْ ذلك مِنْ أنّها تابعةٌ لأبي لهب ، بل ذلك شأنها .

ومن هنا يُمكنُ أن نلمح لطيفةً في تسمية السّورة مرّةً سورةً تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ، وتسميتها مرّةً بـ (المسد) .

والآخر : أنّ « (الواو) واو الحال ، وجملة « ﴿ وَأَمْرَاتُهُ ﴾ . . . » إلخ حالٌ من الضمير في ﴿ سَيَصْلَى ﴾ أي سيصلى ناراً ذاتَ لهبٍ حالٌ كَوْنِ امرأته حمالة الحطب .^(١)

(١) راجع في وجوه الإعراب : معاني القرآن للفراء (ت ٢٠٧هـ) تحقيق : أحمد يوسف النجاتي ومحمد علي النجار وعبد الفتاح إسماعيل شلبي ، ط ١ ، =،

و «واو الحال» فيها معنى العطف والمصاحبة ، وتسميتها لها «واو حال»، لا يُخرجها عن أن تكون مجتلبةً لِضَمِّ جملةٍ إلى جملةٍ^(١).

ومن معاني الهدى في القول بالحالية هنا أن هذا يُبرز لنا أهمية الإنباء عن مصير امرأته ، ذلك أن الحال حين تقع جملةً ، فهذا يمنحها مزيد التفات إليها ، فأنت حين تقول : رأيتُ محمداً وهو ساجدٌ ، فأنت تجعلُ مناط العناية ليس الإنباء برويتك محمداً ، بل الإنباء برويته على هذه الحال ، فالإنباء بهذه الحال محطُّ العناية ، وذلك شأن القيود ، هي مناط العناية في الإنباء ، فكلُّ كلمة تضاف إلى ركني الجملة يكون لها نصيبٌ وفير من مناط العناية ، فالقيود في الجملة ذات مكانة عليّة من القصد في الإنباء ، والقول بأنّها فضلةٌ إنّما يراد أنها ليست بالتي يفسدُ أصلُ المعنى بدونها ، كالمسند والمسند إليه ، ولكنها التي ينقصُ المعنى بدونها ، بل قلْ يفسدُ المعنى القصديّ بدونها ، ومن ثمَّ إنّ تَكُنُّ القيودُ فضلةً عند النحاة ، فهي عنصرٌ مهمٌّ جداً في المعنى القصديّ عند البلاغيين إذا ما كان هذا في شأن القيود (المتعلقات) في بناء الجملة في عالم البيان ، فإنَّ الأمر كمثلِه في شأن المتعلقات (الأبناء) في بناء الأسرة وما فوقها في عالم الإنسان . ليس هنالك من هو فضلهُ وجوده كعدمه ، ليس فاعلاً في مجتمعه وعالمه . كلُّ له فعله فيه وعليه مسؤوليته (كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته) ذلك هو هدي الإسلام في تعمير الحياة والكون والإنسان ..

= دار المصرية للتأليف والترجمة - مصر . ٢٩٨/٣ معاني القرآن وإعرابه ،

للزجاج (م.س) ج ٥ ص ٣٧٥

إعراب القرآن ، لأبي جعفر النَّحَّاس (ت : ٣٣٨هـ) تحقيق : عبد المنعم خليل

إبراهيم ، ط . ١ ، سنة ١٤٢١هـ . دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٢/٥ ، ١٩٣

(١) دلائل الإعجاز : قراءة شاكر ص ٢١٤ فقرة (٢٤٣)

وقوله تعالى : (حَمَّالَةٌ) جاء على صيغة المبالغة ، إشارة إلى مزيد اعتنائها واهتمامها بذلك الفعل ، وأنها قد اتخذته رسالة حياتها ، فهي ذات انشغال به ، واعتناء ، ولا تملّ من القيام بحقه عليها . وفي هذا من الإبلاغ في بيان فساد حالها ، وأنها غير مؤهلة لفعل الخير . فهي مشاكهة أبا لهب في صناعة الشرّ إن لم تكن هي حاملة أبي لهب على هذا النهج في صناعة الشرّ . والترويح له .

* * *

من معاني الهدى في قراءة «النصب» : ﴿ حَمَّالَةٌ ﴾

جاءت قراءة عاصم بالنصب ﴿ حَمَّالَةٌ ﴾ ، والنصب يحتمل أحد أمرين :
الوجه الأول : أنه نعتٌ نُصِبَ على القطع ذمًّا ، وفي قطع النّعتِ عن متابعة المنعوتِ إعراباً لفتٍ للانتباه ؛ لأنّ في المخالفة الإعرابية ما يجعل السّمع والقلب ملتفتاً إلى هذا التّغايير ، فينظر فيما وقع فيه التّغايير ، والعدول ، فإذا هو كلمة « حمالة » فيكون لها مزيدُ اعتناء ، فتتغورُ في القلب وتتمكّن منه ، فتعطى حظاً من التّأملِ ليسَ لها إنْ كانتْ قد جرتْ على نهجِ المتابعة .
وفي العناية بتأملها في سياقها ما يسوقُ إلى القلب فيضاً من معاني الهدى في حال المرأة وأثرها على صاحبها في صناعة الشرّ^(١).

(١) هَذَا مَسَلِّكَ مِنْ مَسَالِكِ تَوْكِيدِ الْمَعْنِي ، وَلَفَتْ الْإِتِّبَاهَ إِلَيْهَا . فَالْسَّيْرُورَةُ عَلَى نَمَطٍ وَاحِدٍ قَدْ يَدْعُو إِلَى الْغَفْلَةِ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي يَرَادُ لَهُ مَزِيدُ اعْتِنَاءٍ ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ مَسَالِكِ الْعِنَايَةِ وَالتَّوْكِيدِ مَا يَعْرِفُ عِنْدَ الْبَلَاغِيِّينَ بِالْإِلْتِفَاتِ فِي حَرَكَةِ الضَّمَائِرِ ، كَالِانتِقَالِ مِنَ الْغَيْبَةِ إِلَى الْحُضُورِ ، فَالْمَحَلُّ الَّذِي حَدَثَ فِيهِ الْإِنْتِقَالُ هُوَ مَنَاطُ الْعِنَايَةِ ، وَكَذَلِكَ الْعُدُولُ عَنِ الْمَتَابَعَةِ الْعَدَدِيَّةِ ، كَالِإِنْتِقَالِ مِنَ الْإِفْرَادِ إِلَى التَّشْبِيهِ أَوْ إِلَى الْجَمْعِ وَكَذَلِكَ الْعُدُولُ عَنِ الْمَتَابَعَةِ تَذَكِيرًا وَتَأْنِيثًا كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ رَحِمْتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (الأعراف: ٥٦)

والوجه الآخر : لنصب كلمة « حمالة » أنها حالٌ وإضافة لا تمنع القول بأنها حالية ، لأنها ليست إضافة حقيقية ، تكسب المضاف التعريف المانع من الحالِية ، فهي أشبه بالإضافة إلى النكرة ، تمنح التخصيص ، ولا تمنح التعريف . ولاسيما أن المعنى على الاستقبال ، فهو وصفٌ لحالها يوم القيامة .

ومن البين أن « الحال » في الجملة بمثابة « الخبر » في الدلالة ، فأنت إذا ما قلت : محمدٌ كريمٌ غنياً وفقيراً ، فقولك : غنياً وفقيراً أفاد في الإخبار عن محمدٍ ما أفاده قولك كريمٍ إلا أن « كريم » خبرٌ لا يستقيم أصل المعنى إلا به^(١) وعلى وجهي النصب يكون قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ٥) هو الخبر عن (امراته) إن قلنا إنه مرفوعٌ على الابتداء ، أو يكون حالاً إن قلنا : إنه مرفوعٌ عطفاً على الضمير في ﴿ سَيَصِلُ ﴾ (المسد: ٣)^(٢)

من معاني الهدى في قراءة الرفع : (حمالة) :

جاءت القراءة المتواترة الأخرى برفع (حمالة) وهي على هذا إما خبرٌ عن (امراته) إن قلنا إنها مبتدأ ، وقوله تعالى ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ٥) خبرٌ ثان ، أو نعتٌ إن قلنا إن « امراته » مرفوعٌ عطفاً على الضمير

== عدل عن التأنيث في (قريب) إلى التذكير لفتاً إلى شدة قرب رحمته منهم فإنهم المحسنون ، وفي العدول الكتابي عن رسم « التاء » في « رحمة » مربوطة (رحمة) إلى (التاء الميسوطة) (رحمت) مزيد لفت الانتباه إلى عظيم اتساع رحمته لهؤلاء فإنهم المحسنون . وفي هذا من الترغيب في مقام الإحسان ما فيه ، وكل ذلك يجري في منهاج التثقيف النفسي في البيان القرآني ، وهو منهاج جد وسيع .
(١) ينظر في قسمي الخبر في الجملة كتاب : دلائل الإعجاز لعبد القاهر . ص ٢١٢ ، ٢١٣ . فقرة (٢٤١) .

(٢) جاءت قراءة غير متواترة بتنكير « حمالة » وقطعها عن الإضافة ، مع النصب وإعماله النصب في ما بعده : حمالة الحطَب . وهي بهذا تكون حالاً وجاءت قراءة أخرى غير متواترة : حمالةً للحطَبِ بجر « الحطَب » وهي حالٌ أيضاً من « امراته » .

في ﴿ سَيَصْلَى ﴾ (المسد: ٣) ويكون قوله تعالى ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ٥) نعتاً ثانياً .

ومجيءُ النعت جملةً عقبَ النعتِ المفردِ سائغٌ شائعٌ في العربية .
وقوله ﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ هو بيانٌ لحالها في الآخرة ، وليس بياناً لحالها في الدنيا إلا على سبيلِ الاستعارة بأن يُصورَ قيامها بالفتنة والإفساد في صورة حمالةِ الحطب .

وصورةُ حملِ الحطبِ على الحقيقةِ مما تنفرُ منه المرأةُ العربيةُ ؛ لأنه من الامتهان الذي لا يكونُ إلا للإماء ، فإذا ما كانت المرأةُ العربيةُ نافرةً من حملِ الحطبِ على الحقيقةِ وهو ما يُنتفعُ به ، فالأولى بها في منطقِ العقلِ الفطريِّ أن تكونَ أشدَّ نفوراً من حملِ الحطبِ على المجاز : حملِ الفتنة والإفساد ، والسَّعيِ بهما بينَ الناسِ فإنَّ ذلكَ ممَّا يُضيرُ ويُسِيرُ ، فهو أولىُّ بالهجرانِ ، ولكنَّ أكثرَ النَّاسِ لا يعقلون .

والقولُ بأن عبارة « حمالة الحطب » مجازٌ عن ارتكابِ جريمةِ النَّميمةِ ممَّا شاعَ البيانُ به في لسانِ العربيةِ .

وهذا يُبينُ لنا أن العربَ قبلَ الإسلامِ كانت فطرتهم تنفرُ من هذا الدَّاءِ الوييلِ المُبِيرِ ، ولهذا جاء عن رسولِ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ أنه قال : « خِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا »^(١)

(١) روى البخاريُّ في كتابِ (التفسير) من صحيحه بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ سئلَ رسولُ الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ : أَيُّ النَّاسِ أَكْرَمُ؟ قالَ : « أَكْرَمُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ » . قالوا : لَيْسَ عَنْ هَذَا سَأَلُكَ . قالَ : « فَأَكْرَمُ النَّاسِ يُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ »

وفي القول بأنَّ قوله تعالى : ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ ليسَ على الحقيقةِ في مسيرِها لأنَّها كانت من أشرفِ قريشٍ ^(١) وأن ذلك على سبيلِ المجازِ يَصوِّرُ

= قالوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ . قَالَ « فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي ؟ » . قَالُوا نَعَمْ .
قَالَ « فَخِيَارُكُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقَهُوا » .

معاني الهدى في هذا الحديث :

هدي رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ إلى أَنَّ العربَ قبلَ الإسلامِ لم تكن خلاءً من مكارمِ الأخلاقِ ، بل كان لهم من ذلك نصيبٌ موفور ، وجاهليتهم لم تكن جاهليَّةً أخلاقيةً ، بل كانت جاهلية عقديَّة ، مرتبطة بعقيدة التوحيد ، كانوا مشركين بالله سبحانه وتعالى ، فلا يستقيم أن يُفهم نعتهم بالجاهلية أنَّها جاهلية أخلاقية ، كلا .

الجاهلية التي نحن غارقون فيها هي الجاهلية الأخلاقية ، وإن كنا نعلن في الدنيا أننا نوحده الله تعالى . لانعبد أحداً سواه ، لذلك لمَّا ترك المشركون جهاليتهم العقدية كانوا بما معهم من عظيم مكارم الأخلاق ما ملأ الدنيا عدلاً ونوراً وهدى ، ونحن في عصرنا هذا على الرَّغم من أننا نعلن صباح مساء : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ونملا الأرض مساجد إلا أن جاهليتنا الأخلاقية تهاوت بنا في سفح الحياة ودركها الأسفل ، فلم يلقَ الناسُ منا إلا ما ينفروهم عن الإسلام ، فنحن من أكبر عوائق انتشار الإسلام . ونحن بهذه الجاهلية الأخلاقية نتلبس بشيءٍ من جريرة الصدِّ عن سبيلِ الله تعالى ، وتلك هي الحالقة الحارقة ، ولكن أكثر الناس لا يعقلون .

(١) جاء في كتب السير آثارٌ تخبر أنَّها كانت تحملُ بنفسِها الشَّوكَ فتضعه في طريق النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ليؤذيه ، وهذا إن صح ، فهو يَصوِّرُ لنا عظيم ما يعتمل في صدرها من بغضٍ لرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وسلم ، وأنها تتلذذ بهذا العمل القميء ، لفساد نفسها ولا تدعه لخدمها يباشرونه عنها ، فبلغ بها من سوء حالها ، وفساد فطرتها ما أنساها منزلها في قومها شرفاً ، فباشرت ما يستحيي منه من هو أدنى منها منزلةً في القوم .

وهذا يبرزُ لنا عظيم أثرِ « البغضِ ، والشَّحناءِ » في مسلكِ صاحبه ، يخرجُه عمَّا يجبُ أن يستمسك به ويُقيم عليه من الترفع عن صغائر الأفعال والأقوال ==

لنا عظيم خطر هذا الخلق القميء في إهلاك العلاقات بين الناس مما يترتب عليه من التعادي والتناحر ما لا يُطاق . فالسعي بالنميمة ، مما تقع به شرور جسام ، فالمرأة الشريفة نسباً وحسباً هي من أنفر الناس عن هذا .

وبعض أهل العلم على أن ذلك يصور مصيرها ، فهي تحمل أوزارها يوم القيامة كما يحمل المرء الحطب ، فيوقد به النار ، فهي تحمل أوزارها يوم القيامة لتكون وقود نارها التي تعذب بها . وكأن في هذا بياناً لما استوجبته من النار ، فهي التي اجتهدت في استحقاقها ذلك العذاب يوم القيامة . ﴿ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الأنعام: ١٣٩)

﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾ (النحل: ٨٨)

﴿ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (فصلت: ٢٨)

والقرآن الكريم يُصَرِّفُ هذا المعنى : معنى أن العصاة والطغاة هم الذين يجتهدون في أن يكونوا مستحقين لما يكون لهم من العذاب يوم القيامة ، ولذا كثر في القرآن وصف العصاة والطغاة بأنهم أصحاب النار :

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

(البقرة: ٣٩)

==والأحوال، فإن ابتلي بشيء من ذلك استتر ، وجاهد في التخفي . فإذا رأيت أحداً ممن حولك على مثل هذا فاعلم أنه من أحفاد أبي لهبٍ وامرأته . وفي كل هذا ما يُثَقِّفُ النفس فتفر من هذا الداء الوبيل داء البغضاء والشحناء فراراً يقيها من سوء الذكرى وسوء المصير .

﴿وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (الأعراف: ٣٦)

﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ (الحج: ٥١)

وغير ذلك كثير في البيان القرآني .

وعبارة ﴿أَصْحَابُ النَّارِ﴾ (المائدة: ٢٩) تهدي إلى أنهم صَحِبُوا ما استحقوا به النار ، فكأنهم ما فعلوا ذلك إلا ليكونوا أصحاب النار ، والصَّحْبَةُ تقتضي المداومة على الشيء ، وهذه المداومة لا تكون إلا من تعمل ، وتديب . وهم بحق يصحبون النار في مسيرهم وسيصحبونها في مصيرهم .

يصحبونها في مسيرهم بما يقتربونه من صناعة الشر وإدارته في الأرض ، فهم بهذا يحرفون الفطرة التي فطرهم الله تعالى عليها ويحرفون كل القيم الآدمية التي ورثها المرء عن أبينا آدم عليه الصلاة والسلام .

إنَّ صنَاعَ الشرِّ هُمْ فِي حَقِيقَةِ أَمْرِهِم قَائِمُونَ فِي نَارٍ حَقِيقَةٍ إِلَّا أَنَّهَا نَارٌ معنوية لا تشعرُ بها أجسادهم ، ولكن قلوبهم تحترق بها .

ألا تسمعُ الله تعالى يقول في شأن الذين يتاجرون بكتاب الله تعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتُرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا^١ أُولَٰئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (البقرة: ١٧٤)

وفي شأن الذين يأكلون أموال اليتامى ، يقول سبحانه وتعالى :

﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا^٢ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ (النساء: ١٠)

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ ﴾ (البقرة: ١٧٤) و ﴿ إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ﴾ (النساء: ١٠) الأكل فيه على الحقيقة لا على المجاز وكذلك « النار » وإن قالَ بالمجازية بعضُ أهلِ العلم فالأعلى أنَّ هذا حقيقة لكنَّها ليست بنار حسيَّة تراها الأبصارُ ، وإنما هي نارٌ معنويَّة تراها البصيرةُ ، هي تحرقُ الفطرة السَّوية ، والقيم الإيمانية ، فلا تكادُ تبقى شيئاً^(١) .

ألا ترى أنَّه قال بعد ذلك : ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤)

(١) جمعٌ من أهل العلم بلسان العربية ذاهبٌ إلى أنَّ الكلمة إذا ما كانت لها دلالة على أمر حسيٍّ ، ودلالةٌ على أمر معنوي ، فدلالته على ما هو محسوس هو الحقيقة ، ودلالته على ما هو معنوي مجازية ، من أنَّ الوضع اللغوي الأوَّل كان يضع الألفاظ إزاء المدلولات الحسية ، فالإنسان الأوَّل كان إدراكه المحسوسات أسبق من إدراكه المعقولات .

هذا المذهب غيرُ مؤسَّس على يقين ، بل غيرُ مؤسَّس على ما يهدي إليه البيانُ القرآني من أنَّ الإنسان الأوَّل (آدم عليه الصَّلَاة والسلام) لم يكن بدائيًا في الإدراك والفهم والإفهام .

كلًا . الإنسان الأوَّل كان نبيًّا صنعه الله تعالى بيده ، وعَلَّمه الأسماء كلها وأسكنه الجنة ، وأسجد له الملائكة . فكيف يكونُ كما يزعمون ؟!!!

أحقًا لم يكن سيدنا آدم عليه وعلى أبنائه الأنبياء جميعًا الصَّلَاة والسلام يدرك إلا ما كان محسوسًا . ؟!!!

أكان لا يعرف معنى الحب والبغض ، والإيمان والكفر ؟!!

ألم يكن يعرف مثلًا أنَّ العمى عمى بصر وعمى بصيرة ؟!!!

من ذا الذي يقول إن آدم عليه الصَّلَاة والسلام كانت الألفاظ عنده في أوَّل الأمر إزاء مدلولات حسية ، ثم نقلها من موضوعها الحسي إلى المعنوي ؟

أي دليل على هذا ؟ إنَّه ضربٌ في الغيب بغير بينة .

﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴾ (الإسراء: ٣٦).

هذا يدلُّك على أنَّ ما قبلَ ذلك يكونُ في الدنيا ، وهذا في الآخرة ، فلهم عَقُوبَتَانِ :

العُقُوبَةُ الْأُولَى فِي الدُّنْيَا ، وهي الحرمانُ مِنَ الشُّعُورِ بما هم فيه من فُجُورٍ :

﴿ وَالَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴿١٨٣﴾ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (الأعراف: ١٨٢، ١٨٣)

﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبْ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٤﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ (القلم: ٤٤، ٤٥)

وذلك بتهاكُّ الفِطْرَةِ السَّوِيَّةِ التي خلق كلَّ مولود عليها ، وإيادة القيمِ الإيمانية من نفوسِهِمْ .^(١)

﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٨٥﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٨٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَايَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِمْ فَخَبَّطْتَ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُنْقِصُهُمْ هُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنَّا ﴿١٨٧﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا ءَايَتِي وَرُسُلِي هُزُوءًا ﴾ (الكهف: ١٠٣-١٠٦)

(١) روى الشيخان : البخاري في كتاب (الجنائز) ومسلم في كتاب (القدر) من صحيحهما بسندِهِمَا عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه - قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - « مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أَوْ يُمَجِّسَانِهِ ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بِبَهِيمَةٍ جَمْعَاءَ ، هَلْ تُحْسِنُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ » .

ثُمَّ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ - رضى الله عنه ﴿ فَطَرَتِ اللَّهُ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الْدِّينُ الْقَرِيمُ ﴾ (الروم: ٣٠)

وهذا يصور لنا عظيم جناية الآباء على الأبناء ممَّا يجعل الأبناء حين يكبرون أسرع إلى العقوق منهم إلى البرِّ بأبائهم ، جزاءً وفاقا .

﴿ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ آتَاهُ اللَّهُ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ (فاطر: ٨)

﴿ وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ (غافر: ٣٧)

والعقوبة الأخرى تتمثل في قوله تعالى ﴿ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (البقرة: ١٧٤)

وفي قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (النساء: ١٠)

وأمثال أولئك ينتقلون كلَّ صباح من درك من دركات الفجور إلى درك أعظم ، ولا ترى واحداً من أمثالهم ، يؤوب إلى رشده لأنَّ النار تلتهم ما فيه من الفطرة والنفس اللوامة .

فالله تعالى حين قال في شأن امرأة أبي لهب ﴿ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (المسد: ٤) هدى إلى ما استوجب لها أن تكون في مصيرها من أصحاب النار . إنها هي التي حملت أوزاراً على كاهلها في مسيرها في الدنيا ، واصطحبت ذلك ما تخلت عنه ، فكان عدلاً ألا تحرم في مصيرها في الآخرة ممّا حرصت على اصطحابه في مسيرها في الدنيا .

﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤)

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْسِيرٍ ﴾ (هود: ١٠١)

﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴾ (الزخرف: ٧٦)

فمن سلك مسلكها وسار مسيرها من أحفادها في كلِّ عصرٍ ومصر ، فإنَّ مصيرَه هو هو مصيرُ حمالة الحطب (الأوزار) يوم القيامة :

﴿ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا
يَنْحَسِرَتْنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۖ أَلَا سَاءَ مَا
يَزِرُونَ ﴾ (الأنعام: ٣١)

﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ ۖ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ
عِلْمٍ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴾ (النحل: ٢٥)

* * *

وجاء قوله تعالى : ﴿ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾ (المسد: ٥) شفيعاً لقوله
تعالى ﴿ حَمَالَةَ الْحَطَبِ ﴾ (المسد: ٤) مصوراً الهيئة التي تكون عليها في جهنم
يوم القيامة ، وهي هيئة تجمع بين أمرين عظيمين:
الأول : المهانة ، والآخر : الإيلام .

أما المهانة فهي العريية الشريفة التي كانت تتصايح في الناس أن قريشاً قد
علمت أنها ابنة سيدها ، فكان من هوانها وإهانتها أن يجعل في جيدها حبل
من مسد يوم القيامة وهي في وسط قومها الذين كانت في الدنيا تتفاخر بينهم
بحلبيها وزينتها ، ولذا نجد القرآن الكريم يصف عذاب من كانوا يتعالون
على الناس ظلماً وعدواناً أنه عذاب مهين:

﴿ بِئْسَمَا آسَرُوا بِمَآ أَنفُسُهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنْزَلَ اللَّهُ مِنْ
فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۚ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۖ وَلِلْكَافِرِينَ
عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (البقرة: ٩٠)

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّيَهُمْ ۖ إِنَّمَّا نُمِلِّيهِمْ
لِيَزِيدُوا إِثْمًا ۚ وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (آل عمران: ١٧٨)

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (لقمان: ٦)

﴿وَإِذَا عَلِمَ مِنْ ءَايَاتِنَا شَيْئًا أَخَذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾

(الجاهلية: ٩)

فأولئك الذين يتعالون على الناس بأنسابهم أو مناصبهم ، وأموالهم وسلطانهم ظلماً وعدواناً ويغمطونهم لهم عذابٌ مُّهِينٌ يوم القيامة ، فإنَّ غَمَطَ النَّاسِ واحتقارهم والاستخفافِ بهم شطرُ الكِبَرِ :

الكِبَرُ ضربان :

● بَطَرُ الْحَقِّ حجده ودفعه وردّه .

● وغمط النَّاسِ واستحقارهم واستصغارُ شأنهم^(١)

اصطفاء كلمة « الجيد » ، إشارة إلى أنّه ليس لها يوم القيامة من الحليّ الذي يكون في جيدها إلا حبلٌ من مسد ، فاصطفى الاسم الذي يذكر في سياق المدح والوصف الجميل ، فأورده في سياق العذاب والهوان ، على سبيل التهكم ، فهو من باب : « تحية بينهم ضربٌ وجيع » وهو باب في العربية وسيع بديع نفيع^(٢).

وزاد الأمر تهكماً أن جعل قلاذتها في جيدها حبلاً ، والحبلُ في لسان العربية ما يُربطُ بِهِ الْأَشْيَاءُ والحيوانات ، ويجعل في غالبِ الأمر في عنق

(١) روى مسلم في صحيحه من كتاب (الإيمان) بسنده عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه عن النَّبِيِّ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ :

« لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبَرٍ » .

قَالَ رَجُلٌ : إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ تَوْبُهُ حَسَنًا وَنَعْلُهُ حَسَنَةً .

قَالَ « إِنَّ اللَّهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ الْكِبَرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمَطُ النَّاسِ » .

(٢) إن رغبت في حميل جليل جميل من هذا فانظر : شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقي (ت : ٤٢١هـ) نشر : دار الكتب العلمية ، بيروت - ط . ١ ، ١٤٢٤ هـ .

الحيوان ، وكانوا يجعلون في عنق العبيد والإماء حبلاً ، ولا يظنُّ أنَّ الحبلَ لا يكونُ إلا من ليفٍ ، بل يكون من ليفٍ وشعرٍ وجلدٍ وحديدٍ ونحو ذلك ، فالحبلُ كلُّ ما يُمكنُ قتله ، ويربطُ به ، يقال : حبلتُ فلاناً أي ربطتُه ، وفي هذا من المهانة ما فيه .

وجعل هذا الحبلُ أي ما تربطُ به من «مسدٍ» أي من حديدٍ ممسودٍ أي محكم المسد «القتل» ، فكلمة (مسد) تفهم معنى شدة القتل ، ولذا يقال فلان ممسود أي محكمُ الخلقة : أي ذو بنية جسدِيَّة متماسكة ، فقولُه (مسد) صِفَةٌ لموصوفٍ محذوفٍ أي حبل من حديدٍ ممسود . وهو وصفٌ بالمصدر كقولنا : عمر عدلٌ ، إبلاغاً في كماله في الصفة وكمال الصِّفة فيه . كما هو شأن الوصفِ بالمصدر في سنَّة البيان بالعربيَّة .

ومن أهل العلم من ذهب إلى أنَّ هذا الحبل هو ما جاء في قول الله سُبحانه وتعالى : ﴿ ثُمَّ فِي سُلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (الحاقة: ٣٢) . يَقُولُ الواحدِيّ : « والمعنى أنَّ السِّلْسِلَةَ الَّتِي فِي عُنُقِهَا قُتِلَتْ مِنَ الْحَدِيدِ قُتْلًا مُحْكَمًا ، وَلَوْي لَيًّا شَدِيدًا ، وَهِيَ السِّلْسِلَةُ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ : ﴿ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا ﴾ (الحاقة: ٣٢) » ^(١)

ففي هذا البيان عظيمُ تصويرٍ لما تكونُ عليه امرأةُ أبي لهبٍ يوم القيامةٍ لما كانت عليه من سيئِ الخلقِ في مسيرها في هذه الدُّنيا . وأنت إذا ما نظرت في ما خُتِمت به السُّورة رأيت أنَّها تنعطفُ على ما استفتحت به من تبابِ قُوَّةِ أبي لهبٍ وعتاده وسلطانِه وتبابِه هو ، فمن تبابِ ذلك تبابُ امرأته ، فهي من يديه (كسبه) أيضاً ، وهلاكها من هلاكه ، ولاسيما أنَّها كانت ذات أثرٍ بالغٍ فيه .

(١) التَّفْسِيرُ البَسيطُ لأبي الحَسَنِ الواحدِي (ت: ٤٦٨هـ) (م.س) ٤١٧/٢٤

وجاء البيان عن حالها محتملاً وجهين في النسق :

الوجه الأول أنّ (الواو) في (وامراته) عاطفة ما بعدها على صدر الآية ، فكان عطف قصة على قصّة ، وفي هذا إشارة إلى أنّها كانت رأساً فيما يكادُ به رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم .

والوجه الآخر يجعلها تابعة ، سواء قلنا إنّ الواو عاطفة (امراته) على ضميره في (سيصلى) أو قلنا إنها حالية ، وصاحب الحال هو الضمير في سيصلى ، وهذا يفهم أنّها كانت سنده وقرينة له فيما يصدر عنه من إيذاء ، وتصدُّ للدعوة^(١).

(١) وممّا يحسن التلبّث عنده أنّه يصحّ الوقف على آخر « سيصلى ناراً ذات لهبٍ وامراته » على أن الواو عاطفة « امراته » على الضمير في « سيصلى » .

ويكون قوله « حمالة » على أنّه خبر مبتدأ أي هي حمالة الحطب ، فيبدأ القراءة بقوله « حمالة »

أمّا إن رفعنا « حمالة » على أنّه نعت لقوله تعالى « امراته » ، فلا يستقيم الوقف على قوله « امراته » ، لأنّه لا يفصل بين النعت ومنعوتة بالوقف .

وكذلك لا يستقيم الوقف على « امراته » إن قرأنا (حمالة) بالنصب على الحاليّة كما هي قراءة عاصم لأنّ (الحال) كالصفة .

وإن جعلنا النصب في « حمالة » على الدّم جاز الوقف على « امراته » . فالكلام كاف دونها ، والاستئناف بجملة الذم سائغ . يقول الشاعر :

سقوني الحمر ثمّ تكفوني
عداة الله من كذب وزور
جاء قوله (عداة الله) منصوباً على الدّم .

ويجوز الوقف على « الحطب » بناء أنّه رأسُ آية ، والوقف عليه سنة ، وبناءً على أن قوله من بعد « في جيدها ... » خبر عن ضمير « امراته » أي هي في جيدها حبل من مسد ، فإن جعلته خبراً ثانياً ، فلا يوقف على (الحطب) إلا اتباعاً للسنة . ومن الحسن أن يُعنى طالبُ العلم بكتاب الله تعالى بهذا الباب ، ولا سيما طالب العلم ببيانه وبلاغته ، فإنّ هذا الباب من أجل أبواب فقه المعنى القرآني .

وهذان الوجهان يمثلان ما كانت عليه ، فبعضُ الأمرِ كانت هي الرأس فيه ، وبعضه كانت شفيعاً وقريناً لأبي لهب فيه .

وهذا يهدينا إلى أنّ امرأة الطاغية إذا سكنت عن طغيانه فإن مصيرها كمصيره ، وأن على القضاء في الدنيا أن يجعلها شريكاً له في ما طغى فيه ، لأنّها بسكوتها عمّا صنعه من الفساد في الأرض كانت عوناً له على ذلك ، فعلى القضاء إن كان راغباً في العدل - أن تُجازى امرأة كلّ طاغية بما يُجازى به ، لأنّها شريكه في ما اقترَفَ .

وفي هذا دعوةٌ إلى التعاون على مكافحة صناعة الخطيئة ونشرها في الأرض ، فليست رسالتك مسلماً أن تكون في نفسك صالحاً بل لابد أن تكون صالحاً في نفسك مصلحاً غيرك وما حولك ، وهذه الثانية أن تصلح ما حولك لا يرضاها أحفاد أبي لهب من السياسين ... فشعارهم : « خليك في نفسك » وهذا هو السبيل إلى استضعاف أهل الحق أي طلب إضعافهم والعمل على أن يكونوا ضعفاء ، فإن الحق يحتاج إلى التعاون عليه إيماناً واحتساباً . ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝ ﴾ (المائدة: ٢) فالمنهج في الإسلام أن العمل جماعيّ تعاوني وتآذري والمسؤولية فردية . وكلُّ عمل فردي هو عملٌ خداج في نفسه وأثره . وما امتطى الطغاة من بني جلدتنا أو غيرهم إلا لما اكتفى كل مسلم بالنظر في أمره ، وتعامى عن النظر في شأن الأمة .

يقولُ الله تعالى : ﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

(التوبة: ٧١)

روى البخاري في كتاب (الصلاة) و(المظالم) و(الأدب) ومسلم في (البر والصلة والأدب) في صحيحيهما بسندهما عَنْ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قَالَ « إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ ، يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا » . وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ .

وإذا ما سعى كل مسلم إلى طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ فكان ولياً لكل مسلم أيّاً كان جنسه ومصره فإن ذلك ليردي أحفاد أبي لهب ، ولن تجدَ لهم في الأمة أثراً مهما تكاثفت جهودهم وتكاثرت أعوانهم ، وتنوعت مناهجهم وأدواتهم . فالله - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - قد هدانا في رأس معاني الهدى في سورة « المصطفين الأخيار : سورة آل عمران قائلا :

﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (آل عمران: ٢٠٠)

وقال في سورة (العصر) بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿ وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا ﴾ (العصر: ١-٣)

* * *

فاصلة

رسالة إلى أحفاد أبي لهب وإلى أعدائه

هذه السورة تحملُ رسالتين :

الأولى : رسالة جاء مضمونها محمولاً في صريح البيان ومنطوقه لما لها من الأهمية العظمى .

والأخرى : رسالة جاء مضمونها محمولاً في تلويح البيان ومفهومه تأكيداً لما جاء به صريح البيان في السورة قبلها : سورة الفتح والنصر .

الرسالة الأولى رسالة إلى أحفاد أبي لهب :

لم يكن الكفر بالله تعالى وحده هو الذي جعل أبا لهب وامرأته في هذا الذي سمعت ورأيت ، ذلك أنَّ الكافرين بالله تعالى في زمن أبي لهب وفي كلِّ زمان أكثر ممَّن آمن بالله تعالى .

أبو لهب وامرأته اتخذاً منهجاً آخر فوق منهج الكفر بالله تعالى ذلك هو منهج الفجور في العدا للسلام وللحق عن علمٍ بأنَّه الحق ، ومنهج الفجور في الصّد عن سبيل الله تعالى .

اتخاذ هذا الفجور في الصّد عن سبيل الله تعالى منهج حياة ، واتخاذ بطر الحق ودفعه ، ومجالدته ديناً هو عمود شخصية أبي لهب وامرأته وشخصية أحفادهما في كلِّ عصرٍ ومصر .

إنَّ اتخاذ الفجور في الصّد عن سبيل الله تعالى بلسان الحال أو لسان المقال أو بهما معاً منهجاً واتخاذ بطر الحق ديناً هو من الاستكبار الذي هو دين « إبليس » الذي حمله على أن يجاهر بمعصية الله تعالى ، ويأبى أن

يسجد لما أمره الله تعالى أن يسجد له ، فكان جزاؤه الطرد من رحمة الله تعالى واستحقاق لعنة .

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (البقرة: ٣٤)

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُورِ ﴿٣٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٨﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٤٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ يَتَّبِعْ مَا لَكَ إِلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴾ (الحجر: ٢٦-٣٣)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴾ (الإسراء: ٦١)

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ طِينٍ ﴿٧٦﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٧﴾ فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجُودًا ﴿٧٨﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٩﴾ قَالَ يَتَّبِعْ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِي ۖ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٨٠﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِمَّنْ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿٨١﴾ قَالَ فَأَخْرِجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٨٢﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴾ (ص: ٧١-٧٨)

كذلك يصرف الله سبحانه وتعالى البيان عن حال إبليس ودفعه الحق واستكباره وغمطه آدم عليه الصلاة والسلام ، لما لهذا التصريف من الأهمية العظمى في حياة الناس ، وليكون ذلك الموقف الإبليسي حاضراً في وعي كل عاقل ، فيحاذره ويفر منه .

الاستكبار هو مفتاح شخصية إبليس وجنده وقد كان لأبي لهب وامرأته منزلة متقدمة وقدم راسخ وتفنن بالغ في هذا الاستكبار ، فجمع أبو لهب وامرأته ثلاثاً :

الكفر بالله تعالى عن علم بالحق .

بطر الحق ودفعه .

والصد عن سبيل الله تعالى .

هذه الثلاث هي مكونات شخصية أبي لهب ، فمن سلك ما سلك أبو لهب وامرأته كان من أحفادهما في أي عصر أو مصر .

ومن حق كل عاقل أن يحسن التبصر في حال أبي لهب وامرأته مسيراً ومصيراً ، ثم يحسن التبصر في حال نفسه ، ومدى مباعده عن مناهج أبي لهب وامرأته ، ومدى مقاربتة منه ، ليعرف مواقع أقدامه ، فقد يغفل المرء عن حاله ، بينما هو شديد القرب من حال أبي لهب ولا سيما في الثانية والثالثة : بطر الحق والصد عن سبيل الله تعالى .

غير قليل من الناس يقترب هذه الموبقة : بطر الحق ، وهو غافل عن أن هذا بطر الحق ، وأن هذا شطر الاستكبار ، وأن من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر لا يدخل الجنة .

لتنظر فيما يجري في هذه الحياة من حولك في كثير من المجتمعات والطبقات على تنوعها ، تجد هذا قائماً مجاهراً به من غير قليل من العامة والخاصة ، بل هو في طبقة من ينتسبون إلى أهل العلم والدعاة . وهو في طبقة « المحامين والسياسيين والإعلاميين جد كثير » .

يحمل على هذه الموبقة المبيرة : « بطر الحق » الشعور بالذات ، والاعتداد بها ، والرغبة العارمة في الانتصار لها ، فيقف في وجه الحق وهو به عليم ،

اتقاء انتصار الآخر عليه ، لأنّه نظر إلى ذات الآخر ، ولم ينظر إلى الحقّ الذي معه ، وتغافل أنّ الحقيقة الكبرى : ليست قيمة أحدٍ في ذاته ، إنّما قيمته في ما معه من الحقّ .

أنت عزيزٌ بما معك من الحقّ ، فعزتك تدورُ مع الحقّ حيث دار .
تلك هي الحقيقة والحقّ ، ولكنّ غيرَ قليلٍ من الخاصة في مجال السياسة والعلم والمحاماة ... شعارهم :

● أنا الحق .

● يدور الحق معي حيث أدور .

● حيث أكون يكون الحق .

نعم هم لا يقولون ذلك بلسان مقالهم ، لكنّ السنة أحوالهم تصرخ بهذا صَبَاح مساء .

تلك هي الحالقةُ الحارقة .

والأخرى : الصّدّ عن سبيلِ الله تعالى .

هذه من الموبقاتِ التي يمارسها غيرُ قليلٍ من المسلمين دون أن يشعروا ولا سيّما سَحَرَةُ إبليس . بل إنّ كثيراً من المسلمين هم العقبة الكؤود في طريقِ نشر الإسلام ، لأنّ غير المسلمين ينظرون في الإسلام منهاج حياة ، كما هو في بيان الوحي قرآناً وسنّة ، فيرونه عليّ القدرِ جليلِ المنزلة داعياً إلى العزّة والرحمة ، وينظرون في حالِ أتباعه ولا سيّما في الوطن العربيّ ، فيرون ما لا يقبلُ عاقلٌ أن يكون هذا حاله من الكذب والغشّ ، والخيانة ، والمداهنة ، وحبّ النفس ، واستحلال الحرام ، فالحلالُ عندهم ما حلّ في يديك ، والحرامُ ما عجزت عنه ، فإنّ عليه قُدرت صار حلالاً ... إلى آخر

كلّ مفسدةٍ في الأرضِ . فيحاجزهم حالُ المسلمين عن أن يكونوا مسلمين ، وهذا من أكبر عوامل الصّدّ عن سبيل الله تعالى ، ومن أعتى عوائق انتشار الدّعوة في الناس .

﴿ وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ ۖ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّوهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهُتَدُونَ ﴾ ﴿٣٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَنَا قَالَ يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ ﴿٣٧﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ ﴿٣٨﴾ (الزخرف: ٣٦-٣٩)

ليس الصّدّ عن سبيل الله تعالى منحصرًا في مدافعته بالسيف ، بل تلك المدافعة هي أهون أدوات الصّدّ عن سبيل الله تعالى وأضعفها أثرًا ؛ لأنّ هذه المدافعة بالسيف تستثير حميّة كلّ مسلمٍ وإن كان عاصيًا ، فيغضبُ لدينه ، في الوقت الذي هو يمارسُ ما تريد المدافعةُ بالسيف أن تبلمه ، وهذا من المبكيات دما ؛ لذا لم يُعَنَّ أعداء الإسلام اليوم بمدافعة الإسلام بالسيف كما كانوا من قبل ، تركوا ذلك ، وأوكلوا مهمة الصّدّ عن سبيل الله تعالى ومدافعة الإسلام ، ومحاجزته عن الانتشار ، وعن أن يكون دين الناس في الأرضِ إلى جمهرةٍ ممّن ينتسبون إلى الإسلام وراثّة . اتخذوا من أفعالهم وأحوالهم وأقوالهم سبيلاً إلى ما كانوا يريدون تحقيقه من مدافعة الإسلام والصّدّ عن سبيل الله تعالى بالسيف .

إن إعلامياً واحداً فاسداً في قناة تلفازية واحدة ليقوم بما يعجز عنه جيشٌ عرمرم يبغي دفع الإسلام ومنعه من أن يبلغ الناس ، ويبغي الصّدّ عن سبيل الله تعالى .

وإن فناءً واحداً عاجراً يفوق أثره في المدافعة والصد عن سبيل الله تعالى
أثر كتيبة مدججة بأعتى الأسلحة .

وإن أستاذاً جامعياً واحداً فاجراً ، علمه في لسانه ليفسد ويصد عن سبيل
الله تعالى أكثر من فرقة متترسة بأحدث المعدات الحربية .

وإن خطيباً ماجناً استحب الحياة الدنيا على الآخرة ، استعبدته شهواته
وملذاته يخرج على الناس كل جمعة على منبر في مسجد ، فيفسد حاله
ما يدعو إليه مقاله : لسان مقاله يدعو إلى الهدى ، ولسان حاله خارج
المسجد يسوق الناس إلى الفجور سوقاً .

وإن شيخاً واحداً من شيوخ الفتنة والفجور عبدة السلطان ليفسد ما يصنعه
جمع متكاثر من صالحى الدعاة إلى الله تعالى ، ولا سيما إن ابتلي بفصاحة
بيان وبغباء جنان وبمؤازة إعلام سلطان ، وكان علمه فوق عقله ، فعلم بلا
حكمة (عقل) هو مطية صاحبه إلى جهنم .

روى أبو داود في كتاب (الأدب) من سننه بسنده عن عبد الله بن عمرو -
قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُبْغِضُ الْبَلِغَ
مِنَ الرِّجَالِ الَّذِي يَتَخَلَّلُ بِلِسَانِهِ تَخَلَّلَ الْبَاقِرَةَ بِلِسَانِهَا »^(١).

وإن كل من علم بحال أبي لهب مع رسول الله صلى الله عليه وعلى آله
وصحبه وسلم ومع الإسلام ، ورضي بما فعل ، أو لم ينكر ما فعل ، ولم
يستعذ بالله تعالى من حاله وفعله ، ولم يجأ إلى الله تعالى بأن يقيه حاله
وفعله هو من أحفاد أبي لهب .

(١) صححه الألباني في صحيح وضعيف سنن أبي داود . حديث رقم : (٥٠٠٥)
وسلسلة الأحاديث الصحيحة . حديث رقم (٨٨٠)

وإنَّ كلَّ من صدَّ عن سبيلِ اللهِ تعالى : عن الإسلامِ قرآناً وسنةً - بأيِّ سبيلٍ من سبيلِ الصدِّ المباشرِ الصريحِ أو الصدِّ غير المباشرِ هو من أحفادِ أبي لهبٍ وامرأته .

وإنَّ كلَّ من استحقَّ أهل القرآن والسنة ، وتسفَّ حالهم ، ونفَّرَ من منهجهم وافترى عليهم ، وأشاع الأكاذيب عنهم ، وصوَّره في صورٍ تنفِّر منها النفوس ، ولا سيَّما نفوس الشباب هو من أحفاد أبي لهب .

وإنَّ من أحفادِ أبي لهبٍ الصَّادين عن سبيلِ الله تعالى أولئك الذين يريدون أن تشيع الفاحشةُ في المجتمع المسلم ، والذين يريدون أن يبدلوا كلامَ الله تعالى ، والذين يتنازعون في وسائل الإعلام بوجوب تنقية النصِّ المقدَّس : القرآن والسنة ممَّا لا يليقُ - في نظرهم الأحمق - مع مستقبلِ الأمة . والذين يدعون كذباً وإفكاً مبيراً أن النصَّ المقدَّس يدعو أتباعه إلى قتل الآخرين كلِّ أولئك ، ومن رَضِيَ بهم ومن سكَّت عن أفاعيلهم ، كلُّ أولئك من حفدة أبي لهب . لهم ما له وعليهم ما عليه .

﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾ (التوبة: ٣٢)

﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴾

(الصف: ٨)

﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ مُحْتَرِقُونَ ﴾

(الأنفال: ٣٦)

حريٌّ بكلِّ عاقلٍ يريدُ منجاةَ نفسه أن يُحسن البصرَ بما جاءت به سورة المسدِّ ، وأن ينظر في حاله ، ليتقن موقعه من موقع أبي لهب وامرأته .

وحرى بكلِّ مسلمٍ يرجو منجاةً يومَ القيامةِ من صُحبةِ أبي لهبٍ وامرأتهِ
 في نارِ ذاتِ لهبٍ أن يتبرأَ منهم علناً ، وأن يجارَ إلى الله تعالى بالدُّعاءِ
 عليهم ، لعلَّ الله تعالى يرفعَ عن المسلمين تسلّطهم ، ويقيمَ الحقَّ وأهلهُ
 مقاماً حميداً مديداً .

* * *

وإذا ما كانت سورة «تبت يدا أبي لهب» حملت هذه الرسالة إلى أحفادِ
 أبي لهبٍ وامرأتهِ في صريح بيانها ومنطوق آياتها ، فإنها حملت أيضاً رسالةً
 إلى شائني أبي لهبٍ وامرأتهِ ، وأعداءِ منهجهما في مفهوم بيانها ، لأنَّهم قومٌ
 تفقه قلوبهم ما يحمله مفهوم بيان الوحي كمثل ما تفقه قلوبهم ما يحمله
 منطوق بيان الوحي وصريحه الذي جاءهم في سورة «النصر»

حمل مفهوم البيان في سورة «المسد» البشري لكلِّ مسلمٍ يحملُ هم
 الدَّعوة إلى الله سبحانه وتعالى في قلبه ، ويخضع حركته في هذه الحياة
 لخدمة هذه الدعوة .

حملت البشري بأنَّ كلَّ من يتصدَّى لسعيك هذا إنما مصيره هو مصير
 إمامه أبي لهبٍ وامرأتهِ ، وأنَّ مصيرك أنت هو ما جاء مصرحاً به في سورة
 النصر والفتح .

فعلى كلِّ من جاءته البشري تلويحاً في بيان سورة «المسد» وتصريحاً
 في سورة «النصر» أن يستحضر دائماً ما ختمت به سورة (النحل) التي
 ترسم لنا منهاج الدَّعوة إلى الله تعالى :

﴿ اذْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۚ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
 أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ
 عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ۚ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ ﴾

وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

(النحل: ١٢٥-١٢٨)

وفي قوله تعالى جده: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨) ما يملأ قلب كلّ داعٍ إلى الهدى باليقين بعقبى النصر والفتح ، وهذا ما يثور عزيمة كلّ داعٍ إلى الهدى بصفاء قصد ، وطهارة قلب ، والتزام بما شرع الله جلّ جلاله في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلّم وإتقان عملٍ وصبرٍ عليه . فتلك عواملُ النَّجاحِ والفلاح في كلِّ عملٍ صالحٍ مصلحٍ .

* * *

هذا بيان للناس الرّضا بالمنكر وصوره

مِنْ سُنَّةِ اللَّهِ تَعَالَى فِي خَلْقِهِ أَنْ جَعَلَهُمْ مَهْيِّئِينَ لِسُلُوكِ طَرِيقِ الْحَقِّ
وَالْمَعْرُوفِ وَالْخَيْرِ ، وَلِسُلُوكِ طَرِيقِ الْبَاطِلِ وَالْمُنْكَرِ وَالشَّرِّ .

﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ﴿١﴾ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴿٢﴾ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾

(البلد: ٨-١٠)

وأوجب على من هداه الله تعالى هداية إبانة وإعانة وتوفيقٍ إلى الخيرِ أن
يقوم بالوفاء بحقِّ عليه لمن سلك سبيل الباطلِ والمنكر والشر ، فيأخذ بيده
بالحكمة والموعظة الحسنة ، فإن جادلَ جادله بالتّي هي أحسن ، فإن كان
من أحفادِ أبي لهبٍ فأعرَضَ واعتَرَضَ وصدَّ الحق عن أن يُبلِّغَ للناس كيما
يتخذوا بأنفسِهِم لأنفسِهِم قراراً بالقبول أو الرفض - أن يأخذوا على يديه : أن
يقاتل حتى يكفَّ عن الصّدِّ والمعاداة ، فإن لم يكفَّ قُتِلَ حمايةً للنّاس من
شرِّه المستطير . أحسنُ إليه في قتله قال ﷺ : « إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ وَلِيُحِدَّ أَحَدُكُمْ
شَفْرَتَهُ فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ » . (مسلم : الصيد والذبائح)

ذلك فرضٌ لا بدّ من القيام بحقّه ، أمّا أن يترك أهلُ المعروف صناعَ
المنكر ومروجيه يفعلون ما شاءوا ففي ذلك تعريضٌ للأمة للهلكة وكان
الناس جميعاً سواء في صناعة المنكر وترويجه ..

روى أبو داود في «الملاحم» من سُنَّه بسنده عَنِ الْعُرْسِ بْنِ عَمِيرَةَ الْكِنْدِيِّ عَنِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ - قَالَ :

« إِذَا عُمِلَتِ الْخَطِيئَةُ فِي الْأَرْضِ كَانَ مَنْ شَهِدَهَا فَكَرِهَهَا - وَقَالَ مَرَّةً : « أَنْكَرَهَا » كَمَنْ غَابَ عَنْهَا وَمَنْ غَابَ عَنْهَا فَرَضِيهَا كَانَ كَمَنْ شَهِدَهَا » .
حَسَنُ الْأَلْبَانِيِّ فِي صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ سَنَنَ أَبِي دَاوُدَ .

* * *

أصناف الناس إزاء الخطايا :

الناسُ إزاء الخطايا والآثام حين تقع أربعُ :

الثلة الأولى : تشهدها لأنها فعلت بين عينيه طوعاً أو كرهاً ، ولكنها تتخذ موقفاً كريماً : تُنْكِرُ وتعترض وتُبين عن خطر ذلك وتسعى إلى تغييرها بما شرع لها ، وبما اقتدرت عليه ، فتلك هي الناجية .

والثلة الثانية : تشهدها ، ولا تتخذ موقفاً كريماً منها ، بل ترضى ويعجبها ذلك ، بل ربما تمت أن تفعلها ، فتلك هي الخاسرة خسراناً مبيناً .

والثلة الثالثة : لم تشهدها وعلمت بها علم يقين ، فغضبت لله تعالى ، أنكرت بما وسعها ، وسعت إلى تغييرها بما شرع لها ، واقتدرت عليه ، فتلك هي الناجية .

والثلة الرابعة : لم تشهدها أيضاً وعلمت بها ، وما حركت ساكناً بدعوى دع الخلق للخالق ، وبدعوى « عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ » وبدعوى الحرية الشخصية ... إلخ

فتلك كالثانية هي الخاسرة^(١).

والثلة الثانية والرابعة الهالكتان يتكاثر أهلُهما تكاثرَ الجرادِ في زماننا هذا. وفي هذا النبأ الكريم من رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ بَعَثَ لِكُلِّ مُسْلِمٍ إِلَى أَنْ لَا يَكْتَفِيَ بِتَرْكِ فِعْلِ الْمُنْكَرَاتِ ، بَلْ عَلَيْهِ فَرَضٌ عَيْنٌ أَنْ يَتَجَاوَزَ ذَلِكَ التَّركَ لِفِعْلِ الْمُنْكَرِ إِلَى أَنْ يُنْكَرَ عَلَى مَنْ فَعَلَ الْمُنْكَرَاتِ مَا اسْتَطَاعَ ، وَبِكُلِّ سَبِيلٍ مِنْ سَبِيلِ الْإِنْكَارِ وَالتَّغْيِيرِ ، وَأَدْنَاهَا كُفْلَةُ بَغْضِ الْقَلْبِ صِدْقًا هَذَا الْمُنْكَرَ وَبَغْضُ أَهْلِهِ حَتَّى يَتْرُكُوهُ إِيْمَانًا وَاحْتِسَابًا وَالتَّزَامًا ، لَا عَجْزًا . فَمَنْ لَمْ يَفْعَلْ وَلَمْ يَقُمْ فِي هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَقَدْ خَرَجَ مِنَ الْإِيْمَانِ ، لَا الْإِسْلَامَ ؛ لِأَنَّ عَدَمَ الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ وَمَا يُلْزِمُهُ لَا يَعْجِزُ عَنْهُ أَحَدٌ قَطْ ، فَتَرْكُ الْإِنْكَارِ بِالْقَلْبِ آيَةٌ بَيِّنَةٌ بِالرَّضَا بِالْمُنْكَرِ ، وَبِأَهْلِهِ ، وَهَذَا مِنْ بَابِ مُحَارَبَةِ اللَّهِ تَعَالَى . وَاللَّهُ عَزَّ وَعَلَا يَقُولُ :

(١) قوله تعالى ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسُكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ (المائدة: ١٠٥) معناه الزموا صلاح أنفسكم ومراقبتها ، لا يضرركم ضلال الكافرين إذا أسلمتم أمركم لربكم وقمتم إيمانًا واحتسابًا بحق هذا الإسلام من أمر بمعروفٍ ونهي عن المنكر بما شرعه الله تعالى لكم ، فإليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - وَحْدَهُ مَرْجِعُكُمْ فَيُخْبِرُكُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ سرًّا وجهراً قولاً وفعلاً .

فليس في الآية البتة دعوة صريحة أو غير صريحة إلى أن يدع المسلمُ النَّاسَ يفعلون ما يَحِلُّوْا لَهُمْ مِنَ الْمُنْكَرَاتِ مَا دَامَتْ هَذِهِ الْمُنْكَرَاتِ لَا تَمَسُّهُ بِسُوءٍ مُبَاشِرٍ . وَجَهَلُوا ، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا ، لِأَنَّ كُلَّ مُنْكَرٍ يَقْتَرِفُهُ أَحَدٌ مِنْ قَوْمِكَ ثُمَّ لَا تَنْكَرُهُ عَلَيْهِ هُوَ لَا بَدَّ أَنْ يَعُودَ سُوءُ أَثَرِهِ عَلَيْكَ وَعَلَى سَائِرِ قَوْمِكَ . وَقَوْلُ الْعَامَّةِ : أَنْتَ حَرٌّ مَا لَمْ تَضُرَّ « كَلِمَةٌ تَفْهَمُ فَهْمًا جَدًّا خَاطِئٌ . لَنْ تَقِفَ الْبَتَّةُ أَثَارَ الْمُنْكَرِ عَلَى مَنْ اقْتَرَفَهُ وَلَوْ فِي قَعْرِ جَبَلٍ فِي ظِلْمَةِ اللَّيْلِ ، إِنَّهَا لَا مُحَالَةَ سَيُصِيبُ أَثَرُهَا الْبِلَادَ وَالْعِبَادَ بِطَرِيقٍ مُبَاشِرٍ أَوْ غَيْرِ مُبَاشِرٍ ، عَاجِلًا وَآجِلًا . فَلَيْسَ هُنَالِكَ قَطُّ فِي الْإِسْلَامِ الَّذِي جَاءَ بِهِ الْقُرْآنُ وَالسُّنَّةُ حُرِيَّةُ شَخْصِيَّةٍ فِي ارْتِكَابِ الْمُنْكَرَاتِ .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ ﴾ ٢٠ كَتَبَ اللَّهُ
لِأَعْلَيْنَ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ٢١ لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ
أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ
وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (المجادلة: ٢٠-٢٢) .

* * *

من صور الرضا بالمنكر:

للرضا بالمنكر وأهله صور كثيرة يغفل الناس عنها ، ويحسبون جهالة
أنها ليست من تأييد المنكر وأهله .

● من الرضا بالمنكر وبأهله أن تعينهم ولو بكلمة ، بل ولو بالصمت
وهذا مما يقع فيه كثير من العامة . وأن تشهد مشاهدتهم ، ومجالستهم ،
وتكثير سوادهم . وأن تستمع إلى برامجهم ، وأن تتصل بقنواتهم ، وأن
تشارك في شأن من شؤونهم إلخ ، وأن تقرأ أخبارهم ومقالاتهم إلا إذا
كنت من أهل الإنكار باللسان ، بأن تكون من أهل العلم أو من طلبته
المتقدمين فيه المالكيين لحسن الفهم وحسن البيان لتتقضى ذلك وتحذر منه
وتبين عما فيه من المنكر بالحجة والبرهان الصحيح الصريح .

* * *

● ومن الرضا بالمنكر وبأهله ألا تستعيز بالله تعالى جهاراً من منكراته ،
وأن لا تعلن براءتك من أفعالهم .. وأن لا تدعو الله تعالى أن يأخذ بهم إلى
الحق أو أن يطهر الأرض من رجسهم ، ورجس من يعينهم ومن يرضى بهم .

* * *

● ومن الرضا بالمنكر أن لا تُطالب ولاية الأمر بالأخذ على أيديهم ومنعهم من منكرهم بكل سبيل شرعه الله تعالى لولي الأمر في هذا ، فإن لم يفعل ولي الأمر ذلك ، فقد أسقط حقه في طاعته ، وبقي لأهل المعروف : العلماء والحكماء . ليس العامة أن يتولوا ذلك بأنفسهم إلا إذا ترتب على ذلك منكر أكبر ، ولا سيما منكر تمزيق وحدة المسلمين ، ومنكر إراقة دم بغير حق مشروع فحينئذ يدرء منكر أعلى وأشنع بمنكر أدنى ضرراً ونكالا . وأهل العلم بكتاب الله تعالى الذين امتزجت الحكمة بعلمهم هم أولى الناس بتقدير ذلك ، وليس كل ذي علم بحكيم ، فكم من عالمٍ حامل لمقالات أهل العلم هو الخلاء من العقل (الحكمة) وقليل من العلم المحقق مع كثير من الحكمة هو النافع والناجع ، وكثير من دقائق العلم ولطائفه وطرائفه مع خلاء من الحكمة هو الهلاك والبوار ، والجهل خير منه عاجلاً وآجلاً .

وقد كثرت هذه الثلة التي كان علمها فوق عقلها في زماننا هذا كثرة تنخلع لها القلوب هلعاً وفرقاً مما سيحل بالبلاد والعباد من الوبال بهم . فمثل أولئك فريضة على ولي الأمر رأس الدولة أن يحجر عليهم حجر السفية . .

كل ذلك وكثير غيره من صور الرضا بفعل المنكر لا يتسع المقام لبسط القول فيه .

ومن فعل صورة من هذه الصور كان حينئذ كمثليهم ، يعاقب بعقوبتهم . هم فعلوا المنكر وهو لم يغضب الله تعالى . هم فعلوا المنكر وهو لم يتاركهم ، ولم يفصلهم ولم يتحجزهم ، بل بقي متعلقاً بهم وبأخبارهم وبأحوالهم

هم فعلوا المنكر وهو لم يحفز من يملك منهم ويحثهم بما شرع الله تعالى حثّ ولي الأمر به . وكلّ هذا آية بيّنة على أنّ من لم يتصدّ للمنكر وصنّاعه ومروّجيه ما تزال في قلبه أثارة وبقيّة من محبة فعله المنكر .

إنّ من هدى النبيّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّم في اتخاذ موقف من المنكر وأهله مقاطعتهم مقاطعةً تامّةً .

ألا ترى كيف فعل صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّم مع الثلاثة الذين تخلّفوا عن غزوة «تبوك» ؟

عزل المجتمع المسلم عنهم ، أقام بينهم وبين سائر المسلمين حجازاً منيعاً . فحلّ بهم من الهمّ والغمّ والكمد ما حلّ ، وأنت تقرّأ بيان القرآن الكريم ذلك في قول الله سبحانه وتعالى :

﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (التوبة: ١١٨) ^(١)

إنك إن أحسنت التلقّي لما أنبأ به الله تعالى في كتابه الكريم وأخبر به رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلّم في بيانه الشريف عن حال فعل المنكر وأهله ، وأثر ذلك في الأمة حملت فيضاً عظيماً من معاني

(١) أحيلك على ما رواه الشيخان : البخاريّ في كتاب «المغازي» من صحيحه ومسلم في كتاب «التوبة» من صحيحه من حديث كعب بن مالك رضي الله عنه أحد الثلاثة الذين تخلّفوا عن الغزوة دون عذر شرعي . ولولا طول الحديث لنقلته لك ، فتشرّف أنت بقراءته في صحيح البخاري ، وصحيح مسلم ، ثمّ في شرح ابن حجر له في فتح الباري (١١٦/٨ وما بعدها . حديث رقم : ٤٤١٩) وكتاب شيخنا «شرح أحاديث من صحيح البخاري : دراسة في سمت الكلام الأول . ط ٢

الهدى التي تبصر بها طريقك إزاء أهل المنكراتِ ممن يُحيطون بك حيث حللت في هذا العصر الذي تكاثر فيه الفجرة .

إنَّ على ولي الأمر العام المسلم قلباً وقالباً وظاهراً وباطناً أن يأخذ على أيدي هذه الطائفة من المجاهرين باقتراف السيئات والتفاخر بها ، ودعوة الناس إليها ؛ لأنهم خطر على الأمن القومي كما يقول الساسة ، وهم أشدُّ خطراً على الأمة ممن يقترف جريرة « التجسس » و « التخابر مع دولة أجنبية » التي عقوبتها في القانون الوضعي الإعدام ، ذلك أنَّ الذين يجاهرون بالمعاصي ويتفاخرون بها ويعرُّون الناس بها إنّما يستوجبون عليهم وعلى الأمة محاربة الله تعالى لهم ، وإذا كان الذي لا يدع الربا قد هدّد في كتاب الله تعالى بالحرب :

﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴾
﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلُمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴾ (البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩)

فكيف بالذي يحاد الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ويجاهر بالفسوق ويفاخر بالفجور ؟

إنَّ علينا أمرين:

الأول : ألا نعين الشيطان على أخينا الذي لم يتخذ الفجور صناعةً ورسالةً حياة .

والآخر : أن نكون لكلِّ أخ لنا في الله تعالى وفي إقامة شرع الله تعالى في الأرض إيماناً واحتساباً عوناً له على الشيطان ؛ لنكسر شوكته ، وشوكة جنده ، وشوكة عبدته الذين يجاهرون بالخطايا ويتفاخرون بها ، ويتصايحون في

الناس بتسفيه أهل العلم ، حملة كتاب الله تعالى وجند سنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم .

فحق على كل مسلم أن يجاهدكم بما ملك وبما يقتدر على الجهاد به .
فإن جاهدكم بما يقتدر عليه كل مسلم فرض عين عليه .

وأيسر ما نجاهدكم به التمسك بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم حتى يشيع ذلك في الأمة .

ولا يمرض قلوب أحفاد أبي لهب ولا ينهكها ويديمها كمثل ما يروونه من تزايد أهل الطاعة وإصرارهم عليها إيماناً واحتساباً ، وانتشار التمسك بسنة رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم السلوكية ولاسيما بين الشباب رجالاً ونساءً ، فمثل ذلك يملأ قلوب أولئك غمّاً وكمداً متكاثراً .

وهذا سلاح نافذ فاتك يمكن كل مسلم أن يجاهد به ، فشيوع الطاعة لله رب العالمين من أكثر الأسلحة الفاتكة بأحفاد أبي لهب .

إن هذا السلاح ليملاً قلوبهم مرضاً ، فلا يهنأ أحد منهم بما باع به آخرته من عرض الدنيا . فلا تلق سلاحك ، فإن من وراءك أحزاباً للشيطان ترتبص بك ، وتنتهز فرصة من الغفلة أو الوهن تأخذ بك لينقضوا عليك . فاحذر

﴿ قُلْ هَلْ تَرْتَبِصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ ۖ وَخَنُ تَرْتَبِصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا ۖ فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ ﴾ (التوبة: ٥٢)

﴿ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا ۚ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنْ أَهْتَدَى ﴾ (طه: ١٣٥) .

﴿وَمَنْ جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾

(العنكبوت: ٦)

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾

(العنكبوت: ٦٩)

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات: ١٥)

سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ ،
فَاغْفِرْ لِي فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ ، وَصَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى عَبْدِكَ
وَنَبِيِّكَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَأَزْوَاجِهِ وَذُرِّيَّتِهِ وَأَصْحَابِهِ وَوَرِثَتِهِ مِنْ أَهْلِ
الْعِلْمِ وَأُمَّتِهِ أَجْمَعِينَ عَدَدَ خَلْقِكَ وَرِضَاءِ نَفْسِكَ وَزِنَةِ عَرْشِكَ وَمِدَادِ كَلِمَاتِكَ
كَمَا تُحِبُّ وَتَرْضَى إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ .
والحمد لله رب العالمين»

وكتبه

محمود توفيق محمد سعد

almasry411@gmail.com

ثبت أهم المصادر والمراجع

- إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر ، لشهاب الدين الدمياطي (ت: ١١١٧هـ). تحقيق : أنس مهرة . ط . ٣ ، ٢٠٠٦هـ . دار الكتب العلمية - لبنان
- أسرار البلاغة ، لعبد القاهر الجرجاني ، (ت : ٤٧١هـ) قرأه وعلق عليه : محمود محمد شاكر ، ط . مطبعة المدني بالقاهرة ، دار المدني بجدة
- البرهان في تناسب سور القرآن ، لأبي جعفر ابن الزبير (ت : ٧٠٨هـ) تحقيق : محمد شعباني ، ط . وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - المغرب ، ١٤١٠ هـ
- التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور (ت : ١٣٩٣هـ) ط . ١ ، ١٩٨٤ هـ ، الدار التونسية للنشر - تونس .
- تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير : تراث أبي الحسن الحرالي في التفسير (ت: ٦٣٨هـ) تحقيق : محمادي الخياطي ، نشر منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي ، الرباط ، ط . ١ ، ١٤١٨ هـ .
- التفسير البسيط لأبي الحسن الواحدي (ت: ٤٦٨هـ) تحقيق : محمد بن صالح بن عبد الله الفوزان ، ط . ١ ، ١٤٣٠هـ : عمادة البحث العلمي - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض
- تبصير الرحمن وتيسير المنان ما يشير إلى إعجاز القرآن لعلي المهامي . ط . بولاق . مصر
- جامع البيان في تأويل القرآن ، تحقيق : أحمد محمد شاكر ، ط . مؤسسة الرسالة ، ط . ١ ، ١٤٢٠ هـ

- حاشية القونوي ، وابن التمجيد على تفسير البيضاوي ، تحقيق عبد الله محمود عمر ، ط ١٠ ، دار الكتب العلمية . بيروت ، ١٤٢٢هـ .
- دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني ، قرأه وعلق عليه محمود محمد شاكر ، ط ٣ . ط ١٤١٣هـ ، مطبعة المدني بجدة مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة .
- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام - للسهيلي (ت : ٥٨١هـ) تحقيق . عمر السلامي ، دار إحياء التراث العربي ، بيروت ، ط ١ ، ١٤٢١هـ .
- فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرّيب : حاشية على كشاف الزمخشري ، لشرف الدين الحسين بن عبد الله الطيّب (ت : ٧٤٣هـ) طبع بإشراف : الدكتور محمد عبد الرحيم سلطان العلماء - جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم ، ١٤٣٤هـ .
- الكشف عن حقائق غوامض التنزيل ، ط ٣ ، ١٤٠٧هـ ، نشر : دار الكتاب العربي ، بيروت .
- المحرر الوجيز لابن عطية (ت : ٥٤٢هـ) تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد ، ط ١٠ ، ١٤٢٢هـ ، دار الكتب العلمية - بيروت
- مفاتيح الغيب للفخر الرازي ، ط ٣ ، ١٤٢٠هـ ، دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ، برهان الدين البقاعي (ت: ٨٨٥هـ) تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي - ط ١٠ ، ١٤١٥هـ دار الكتب العلمية - بيروت.

* * *

بيان المحتويات

الموضوع

المقدمة

الصفحة

١٥-٣

نعمة تيسير القرآن للذكر - وجوه تيسير القرآن للذكر ، المراد من الذكر - حاجة المتلقي إلى كمال اليقين ، وطهر الفؤاد لفهم عن الله تعالى - وجه اصطفاء النظر في سورة « المسد » القيمة الاجتماعية لهذا النظر . القيمة الاجتماعية للتفكير البلاغي في القرآن . الغاية الرئيسة للتفكير البلاغي في بيان الوحي . الزوايا التي يحقق منها التفكير البلاغي غايته من النظر في بيان الوحي . عمود منهجي في هذا الكتاب : المنهج العلمي ومنهج قراءة البيان وتبصره وتدبره . منهجي في الإبانة عن المراد في هذا الكتاب . مفارقة هذا المنهج مناهج الإبانة في البحث العلمي . بواعث هذه المفارقة . المأمم الأعظم من هذا الكتاب.

الفصل الأول

(٣٨-١٧)

أما قبلُ بينُ يدي السورة . مراجعات منهجية . بعضُ ما يحرصُ عليه أهل العلم في تأويل سورة من سور القرآن عدد آيات سورة « المسد » أهمية الوقوف على عددها . سياقُ نزولها ، دلالتها على إعجاز القرآن ، وصدق النبوة . مقصودُ السورة ، وأهميَّة معرفته

الفرقُ بين موضوعاتِ السُّورةِ ومقصودها الأعظم ، عنايةُ العلماءُ بذلك.

مقصودُ سورة « المسد »

معاني الهدى في تلاحظ المعاني وتناصرها في سورة « المسد » ، وفي سور أُخر : سورة النصر ، والكافرون ، والكوثر والماعون.

معاني الهدى في علاقة سورة « المسد » بسورة « الهمزة » علاقتها بسورة « النساء »

موقعُ سورة « المسد » على لاحب السياقِ الكلي الممتد للمعنى القرآني.

معاني الهدى في النظم التركيبيّ لسورة « المسد »

بناء سورة « المسد » من معقدين.

موقع المعقد الثاني من المعقد الأول.

معاني الهدى في مستويات تجلّي الجلال والجمال في معاني سورة « المسد » :

خصائص المعنى القرآني التي يفارقُ بها كل معنى .

رأسُ الخصائص جلالُ الألوهية وجمالُ الربوبية.

أثر استحضارِ جلالِ الألوهية في الاستماع والتدبر.

أثر استحضارِ جمالِ الربوبية في الاستماع والتدبر.

معاني الهدى في تقديمِ الجلالِ على الجمالِ في المسير

وجه ظهورِ جلالِ الألوهية في سورة « المسد » وخفاء جمالِ الربوبية.

في سورة «المسد» تأكيد منطوق سورة النصر ولمفهومها.

الفصل الثاني

(٣٩-١٢٧)

تفصيل التدبر في أسرار بلاغة سورة «المسد»
مدخل في أسرار بلاغة الاستعاذة.

معاني الهدى في حاجة المسلم إلى الاستعاذة
معاني الهدى في تصريح البيان القرآني النبأ عن عداوة الشيطان
الإنسان

مقامات الأمر بالاستعاذة من الشيطان.

دلالة الأمر في (فاستعذ بالله).

قرينة الدلالة على وجوب الاستعاذة.

هل الاستعاذة آية من القرآن.

قوله (أعوذ بالله من الشيطان) بين الخبرية والإنشائية.

معاني الهدى في إتيان الدعاء في صورة الخبر.

معاني الهدى في البيان بالمضارع (أعوذ) دلالة (الباء) في «بالله»

وجه تقديم الفعل (أعوذ) على الجار والمجرور (بالله)

معاني الهدى في ذكر صفته سبحانه (السميع العليم) في الاستعاذة

معاني الهدى في مدلول كلمة (شيطان) واشتقاقها ، القول بأنها
منحوتة من أصليين

معاني الهدى في تسمية ابن آدم إنسانا ، اشتقاقها . القول بأنها
منحوتة . الدلالة التثقيفية من النظر في تأويل ذلك

معاني الهدى في نعت الشيطان بأنه رجيـم وأثر ذلك في نفسِ
القارئ

التأويل البياني لقوله تعالى: بسم الله الرحمن الرحيم
معاني الهدى في براعة الاستهلال بها ، الاستفتاح بها من عطاءات
الربوبية

أثر الاستفتاح بها في حركة الإنسان.
مذاهب العلماء في بيان ما يتعلق به الجار والمجرور (بسم الله)
المذهبُ الأعلى . وجه ذلك.
مذاهب العلماء في بيان موضع تقدير ما يتعلق به الجار والمجرور
(بسم الله) . المذهب الأعلى ، ووجه علوه .
علاقة تقدير ما يتعلق به الجار والمجرور (بسم الله) بتحقيق تجريد
التوحيد.

معاني الهدى في العلاقة بين لازم معنى (بسم الله) وكلمة التوحيد
معاني الهدى في دلالة (الباء) في (بسم الله)
معاني الهدى في وجه الاتيان بكلمة (اسم) في (بسم الله)
معاني الهدى في النعت بقوله (الرحمن الرحيم)
الجمال والجلال في هذين الاسمين.

معاني الهدى في عدم مشابهة سورة « المسد » سورة « التوبة » في
عدم ذكر « بسم الله الرحمن الرحيم »

معاني الهدى في تأويل قوله تعالى : ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾
معاني الهدى في استهلالُ السورة بجملتين فعليتين ، وما يحمله
الاستفتاحُ بهذا الفعلِ من التثقيفِ النفسيِّ للسامعِ.

القول بأن قوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ دعاءٌ عليه مناقشة هذا المذهب. استعلاء أنه خبرٌ لا دعاء . وجه الاستعلاء.

معاني الهدى في دلالة هذا الخبر على إعجاز القرآن.

معاني الهدى في ما يحمله قوله ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ من البشري لأهل الحق في كل عصر.

معاني الهدى في دلالة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ووجه تقديمها على (تب)

معاني الهدى في الإعلان عنه بكنيته لا باسمه العلم.

معاني الهدى في تجريد هذه الجملة من التوكيد

معاني الهدى في عطف قوله ﴿ تَبَّ ﴾ على ما قبله.

معاني الهدى في دلالة العطف بالواو ، وأثر ذلك في التثقيف النفسي للسامع.

الآية الأولى من السورة هي أصل المعنى . وما بعدها تفصيلٌ له

معاني الهدى في علاقة قوله تعالى ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ بقوله تعالى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾

معاني الهدى في علاقة قوله تعالى : ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ بقوله تعالى ﴿ وَتَبَّ ﴾

معاني الهدى في دلالات التركيب وخصائصه في ﴿ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴾ المعاني التثقيفية المستمدة منها

معاني الهدى في دلالات التركيب وخصائصه في ﴿ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴾ المعاني التثقيفية المستمدة منها علاقتها بما قبلها.

معاني الهدى في تأويل الآيتين في شأن امرأته :

معاني الهدى في الإعراب عن صاحبة أبي لهب بقوله ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾
دون زوجه

معاني الهدى في مقامات البيان بكلمة (امرأة) (زوج) في القرآن
الكريم

معاني الهدى في الوجوه المحتملة لمعنى (الواو) في (وامراته) ما
يستنبط من المعاني التثقيفية من كل .

معاني الهدى في محلّ قوله (امراته) على تأويل (الواو) ما يستنبط
من المعاني التثقيفية من كل .

معاني الهدى في محلّ قوله ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ نصباً ورفعاً
والمعاني التثقيفية المستمدة من ذلك.

معاني الهدى في نعتها بحمالة الحطب في مقابلة نعته بأبي لهب.

معاني الهدى في علاقة قوله ﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ بما
قبله.

معاني الهدى في اصطفاء كلمة (الجيد) دون (العنق) والبيان بقوله
﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾

معاني الهدى في ختم السورة بهذه الآية . وعلاقتها بما استفتحت به،
رسالة إلى أحفاد أبي لهب وإلى أعدائه

هذا بيان للناس : الرضا بالمنكر وصوره

ثبت أهم المصادر والمراجع

الفهرس

كتب للمؤلف

- دلالة الألفاظ على المعاني عند الأصوليين - دراسة منهجية تحليلية (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- سبل استنباط المعاني من الكتاب والسنة - دراسة منهجية تأويلية ناقدة (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- صورة الأمر والنهي في القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه تغيير المنكر - سلسلة كتاب الأمة - قطر (نقد)
- الإمام البقاعي ومنهاج تأويله بلاغة القرآن الكريم (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- فقه بيان النبوة - منهجا وحركة - دراسة في البلاغة النبوية (نشر مكتبة وهبة بشارع . القاهرة)
- إشكالية الجمع بين الحقيقة والمجاز في البيان القرآني . (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- مسالك العطف بين الإنشاء والخبر في الذكر الحكيم . (نشر مكتبة وهبة . القاهرة)
- نسق بناء القصيدة في كتاب عيار الشعر لابن طباطبا - دراسة نقدية (نقد)
- تغيب الإسلام الحق : نقض افتراءات العلمانيين على القرآن الكريم - نشر مكتبة وهبة - القاهرة
- قضايا نقدية في طبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي (نقد)
- الإغريض في الفرق بين الكناية والتعريض للتقي السبكي ، تحقيق ودراسة (نقد)

بحوث محكمة نشرت في حوليات علمية

- فقه التعبير القرآني في ضوء مقامات القرب . (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر - فرع المنوفية)
- الاستفهام القرآني دقائق علمية ورقائق إيمانية (بحث محكم نشر في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر - فرع المنوفية)
- التفكير البلاغي في بيان الوحي (بحث محكم نشر في بحوث المؤتمر العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة)
- مستويات بناء صورة المعنى في العقل البلاغي. (بحث محكم نشر في مجلة جذور المحكمة الصادرة من نادي جدة الأدبي بجدة)
- نقد مذهب التقي السبكي في منع دلالة التقديم على الحصر (بحث محكم نشر في مجلة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض)
- أصول البحث في بلاغة التناسب القرآني (بحث نشر في كتاب مؤتمر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض عن الدراسات البلاغية القرآنية عام (٢٠١٦م))
- نقد العقل البلاغي . (بحث مقدم لمؤتمر العقل وعلوم العربية - جامعة الأزهر - شبين الكوم عام ٢٠١٧م) نشر في كتاب المؤتمر ج ١ .
- مراجعات ناقدة في أسلوب الفصل والوصل (بحث منشور في مجلة «جذور» حولية النادي الأدبي الثقافي بجدة
- نظرية النظم الجرجانية وقراءة الشعر (بحث منشور في مجلة كلية اللغة العربية جامعة الأزهر - شبين الكوم)

* * *